

موسوعة النظم والحضارة الإسلامية

٢

الفكر الإسلامي

متابعه وآثاره

وماثر المسلمين في مجال الدراسات العلمية والفلسفية ،

MUSLIM THOUGHT

Its Origin and Achievements

تأليف

M. M. SHARIF

ترجمة ، وعلق عليه ، وأضاف إليه

الدكتور أحمد شبلي

دكتوراه من جامعة كامبردج (إنجلترا)

أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الطبعة الثامنة (١٩٨٦) مع كثير من التنقيحات والزيادات



مكتبة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

لإصدارها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عتدي باتا بالقاهرة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٩٦٢	الطبعة الأولى
١٩٦٦	الطبعة الثانية
١٩٧١	الطبعة الثالثة
١٩٧٤	الطبعة الرابعة
١٩٧٥	الطبعة الخامسة
١٩٧٨	الطبعة السادسة
١٩٨٤	الطبعة السابعة
١٩٨٦	الطبعة الثامنة

كتب للمؤلف

أولا - موسوعة التاريخ الإسلامى

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة أجزاء لتاريخ العالم الإسلامى كله ، من مطلع الإسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى أسهم بها المسلمون فى ترقية العمران ، وتطوير الفكر البشرى .

الجزء الأول : (الطبعة الثانية عشرة)

١ - مقدمة الموسوعة : نطاق التاريخ الإسلامى - تفسير التاريخ - هل التاريخ علم ؟ .. :

فلسفة التاريخ - فائدة التاريخ - مراحل تدوين التاريخ -

فضية الالتزام فى كتابة التاريخ الإسلامى - علم التاريخ

بن المسيحية والإسلام

- تاريخ العرب قبل الإسلام : الدور والحضر - حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية :

- السيرة النبوية العطرة : جوانب من السيرة تدوّن لأول مرة ..

- الدعوة الإسلاميه وفلسفتها - عصر الخلفاء الراشدين .

٢ - الجزء الثانى : (الطبعة الثامنة)

الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية فى عهدها .

٣ - الجزء الثالث : (الطبعة الثامنة)

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول ، وبدور المسلمين عماله فى خدمة الدراسات الإسلامية والحضارة العالمية .

٤ - الجزء الرابع : (الطبعة الثامنة)

- الأندلس الإسلامية ، وانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا عن طريقها .

- المغرب - الجزائر - تونس - ليبيا (من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر)

- السنوسية : مبادئها وتاريخها .

٥ - الجزء الخامس : (الطبعة السابعة)

- مصر وسوريا من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر .

(تلوين جديد لتاريخ مصر وعرض لأهم آثارها)

- الحروب الصليبية : دوافعها - أدوارها - نتائجها .

- الإمبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن .

٦ - الجزء السادس : (الطبعة الخامسة)

الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء إفريقيا منذ دخولها الإسلام حتى الآن :

- دراسة عن وسائل انتشار الإسلام :
- مراكز الشمال - هجرات عربية وغير عربية - للتجار - الطرق الصوفية - مراكز داخلية .
- الدول الإسلامية قبل الاستعمار الأوروبي :
- غانة - مالي - صغنى - دول الهوسا - برنو - باجرى - واداي - الفونج - مقدشو - مملكة الزنج .
- الدول الإسلامية الحالية :
- موريتانيا - السعال - جامبيا - عينيا - مالي - النيجر - نيجيريا - تشاد - السودان - الصومال - جيبوتي .

٧ - الجزء السابع : (الطبعة الثالثة)

الإسلام والدول الإسلامية بالجزيرة العربية ، والعراق :

- دول الجزيرة العربية من مطلع الإسلام حتى الآن :
- المملكة العربية السعودية - اليمن - جمهورية اليمن الجنوبية - عمان - دولة الإمارات العربية المتحدة - قطر - البحرين - الكويت .
- العراق من مطلع الإسلام حتى الآن .

٨ - الجزء الثامن : (الطبعة الثانية)

الإسلام والدول الإسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الإسلام حتى الآن :

- إيران - أفغانستان - الباكستان - بنجلاديش - ماليزيا - اندونيسيا - برونائى
- الأقليات الإسلامية فى الهند والصين وروسيا والفلبين . . .

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

٩ - الجزء التاسع : (الطبعة الرابعة)

ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم : عصر محمد نجيب - عصر جمال عبد الناصر

١٠ - الجزء العاشر :

ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم ، عصر أنور السادات .

(ترجمت أكثر أجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات) .

، كتب للمؤلف

ثانيا : موسوعة الحضارة الإسلامية

دراسة تحليلية شاملة في عشرة أجزاء، تبرز الاتجاهات الحضارية التي جاء بها الإسلام
لمعالجة البشرية في شئون العقيدة ، والسياسة ، والاقتصاد، وفي مجال الحياة الاجتماعية،
والتربية، والصكرية، والثقافية، كما تبرز جهود المسلمين في الحضارة
التجريبية : وأجزاؤها هي :

١١- الجزء الأول : تاريخ المناهج الإسلامية (الطبعة الرابعة)

مناهج التعليم في صدر الإسلام - انحرافاتهما في عصور الظلام - وجوب تصحيحها:

١٢- الجزء الثاني : { الفكر الإسلامي : مناهجه وآثاره
مآثر المسلمين في مجال الدراسات العلمية والفلسفية (الطبعة السابعة)

١٣- الجزء الثالث : السياسة (الطبعة السادسة)

في الفكر الإسلامي

مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة .

١٤- الجزء الرابع : الاقتصاد (الطبعة السابعة)

في الفكر الإسلامي

مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة ، ومع دراسة شاملة للنقاط التالية :

- ١ - الإسلام والمسلمون في مواجهة المشكلة الاقتصادية .
- ٢ - مبادئ الإسلام الاقتصادية .
- ٣ - الإسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة (الإيداع بالبنوك، شهادات الاستثمار...).
- ٤ - من تاريخ الاقتصاد في الإسلام (بيت المال : موارده ومصارفه ...) .
- ٥ - النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور وأثر الفكر الإسلامي فيها .

١٥- الجزء الخامس : التربية الإسلامية (الطبعة الثامنة)

نظمها - تاريخها - فلسفتها

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، ولما هيج التعليم وأمكنته ،
ولحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والإجازات العلمية ، والعقوبات ، والجوائز ،
والمكافآت ، وملابس المدرسين ، ولقابة المعلمين ، وتكاليف الفرص بين التلاميذ ،
وتوجيههم حسب مواهبهم . .

١٦- الجزء السادس : المجتمع الإسلامي (الطبعة السابعة)

أسس تكوينه ، أسباب ضعفه ، وسائل نهضته

ابتداء من الطبعة السابعة : رؤية جديدة ، تخطيط جديد ، مادة علمية جديدة ، أداء جديد .

١٧- الجزء السابع : الحياة الاجتماعية (الطبعة الخامسة)

في الفكر الإسلامي

• في نطاق الأسرة : كالتحان وتحميد النسل وعمل المرأة . . .

• وفي نطاق المجتمع : كالأفراح والمآتم والموسيقى والفناء . . .

١٨- الجزء الثامن : تاريخ التشريع الإسلامي (الطبعة الرابعة)

وتاريخ انظم القضائية في الإسلام

مع بحوث واسعة عن القرآن الكريم : المصدر الأول للتشريع ،

ومع دراسة شاملة لمصادر التشريع الأخرى .

١٩- الجزء التاسع : الإسلام والعلاقات الدولية (الطبعة الرابعة)

دراسات علمية توضح النهج الإسلامي في العلاقات بين الدول الإسلامية
والدول غير الإسلامية ، في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية .

٢٠- الجزء العاشر : رحلة حياة (الطبعة الرابعة)

تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الإسلامية .

كتب للؤلّف

ثالثا : مقارنة الأديان

سلسلة من الكتب في مقارنة الأديان ، تعتمد على أدقّ المراجع بمختلف اللغات ، وتمتاز دواستها بالحيدة والعمق ، وتشمل :

٢١- الجزء الأول : اليهودية : (الطبعة التاسعة)

- دراسة لشقّ المسائل اليهودية : اليهود في التاريخ من عهد إبراهيم حتى الآن : الصهيونية ، أنبياء بني إسرائيل ، عقيدة بني إسرائيل ، يهوه إله بني إسرائيل ، التلمود والتوحيد في الفكر اليهودي ، التابوت والميكل ، الكهنة والقرايين . .
- مصادر الفكر اليهودي : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء صهيون .
- اليهود في الظلام : الماسونية ، والروتاري ، الاغتياي ، التجسس ، البابيه والبهاية .
- من صور التشريع في اليهودية .

٢٢- الجزء الثاني : المسيحية : (الطبعة التاسعة)

- المسيح والمسيحية في نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة .
- بولس واضع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر .
- شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، المجمع ، طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والأديرة ، حراسة ظهور المعلماء في كنيسة الريتون والمعادي ، حركة الإصلاح الديني ونتاجها ونفدها .

٢٣- الجزء الثالث : الإسلام : (الطبعة التاسعة)

- الله في التفكير الإسلامي ، النوبة في التفكير الإسلامي ، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، الدين المعامة ، المرأة في الإسلام ، الرق وموقف الإسلام منه ، السياسة والاقتصاد في الإسلام . آراء المفكرين الغربيين في الإسلام ورسول الإسلام .

٢٤- الجزء الرابع : أدبيان الهند الكبرى : (الطبعة التاسعة)

« الهندوسية - الجينية - البوذية »

- تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات في الهند ، الأديان في الهند .
- دراسة الكتب المقدسة الهندوسية : الويدا : مهابهارتا : يوجا واسستها ، كيتا .
- أهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الاطلاق والترفانا ، وحدة الوجود .
- تاريخ الهندوسيه والجينية والبودية وتاريخ واضعيها .

كتب للمؤلف

رابعاً : كتب في الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

٢٥- كيف تكتب بحثاً أو رسالة (الطبعة الثامنة عشرة - مع ثلاثة ملاحق مهمة)

دراسة منهجية لكتابة البحوث وإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه .

٢٦ - الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الإسلام ، وامتداداتها حتى الآن .

كتابان باللغة الإنجليزية هما :

٢٧ - ISLAM : Belief Legislation - Morals مكتبة النهضة المصرية

٢٨ - History of Muslim Education

وكتب باللغة الإنكليزية والماليزية :

Negara dan Pemerintahan Dalam Islam - ٢٩

Manjarakat Islam - ٣٠

Hukum Islam - ٣١

Sedjarah dan Kebudayaan Islam I - ٣٢

Sedjarah dan Kebudayaan Islam II - ٣٣

Sedjarah dan Kebudayaan Islam III - ٣٤

Perbandingan Agama (Jahudi) - ٣٥

Perbandingan Agama (Masahi) - ٣٦

Perbandingan Agama (Islam) - ٣٧

Perbandingan Agama (Agama 2 yang - ٣٨

Pustahm National Terbesar di India: Hindu-Jaina-Buddha)

(Singapore) Sedjarah Pendidikan Islam - ٣٩

Politik dan Ekonomi Dalam Islam - ٤٠

Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam - ٤١

Perkembangan Keagamaan Dalam Islam - ٤٢

dan Masahi

Perang Salib - ٤٣

Kurikulum Islam Dalam - ٤٤

Perkembangan Sedjarah

Pengajaran Al Quraan - ٤٥

sedjarah Kehakiman Dalam Islam - ٤٦

كتب للمؤلف

خامساً : المكتبة الإسلامية لكل الأعمار

١٠٠ جزء من سيرة عظماء الإسلام، ومن التاريخ، والحضارة، وقصص القرآن . .

للأولاد والشباب والسيدات والرجال، ظهر منها الأجزاء التالية :

المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة : (١٦ جزءاً) .

- | | |
|------|---|
| ج ١ | محمد قبل البعثة . |
| ج ٢ | من غار حراء . . إلى غار ثور (قصة الإسلام في مكة) . |
| ج ٣ | الإسراء والمعراج : دراسة تصحيح للقضاء على الشطحات . |
| ج ٤ | الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها . |
| ج ٥ | الرسول الداعية ومربي الدعاة . |
| ج ٦ | (أ) الرسول في بيته : زوجات الرسول - أسباب تعدد الزوجات . |
| ج ٧ | (ب) الرسول في بيته : مشكلات الزوجات وكيف عالجها -
الحجاب - أولاد الرسول - أحفاده - خدمه |
| ج ٨ | الرسول بين أصحابه - الرسول يربي الفرد المسلم - الرسول يربي المجتمع الإسلامي . |
| ج ٩ | الرسول يربي القضاة، ويربي القوة العسكرية ، ويربي الولاة والحكام . |
| ج ١٠ | : الرسول والشباب - الرسول والعمل . |
| ج ١١ | توجيهات طبية يقدمها الرسول - مكرمات للرسول -
الرسول والمنافقون . |
| ج ١٢ | الرسول والنصارى - الرسول واليهود . |
| ج ١٣ | الإسلام والقتال، وهل انتشر الإسلام بالقوة أو بالدعوة -
غزوة بدر ودراسات جديدة حولها - أهم أحداث غزوة بدر |
| ج ١٤ | غزوة أحد والهزيمة التي أخافت المنتصر - غزوة الأحزاب
وكلمة عن سلمان الفارسي . |
| ج ١٥ | صلح الحديبية - كتب الرسول للملوك والرؤساء - غزوة مؤتة
وبند الصراع ضد الروم : |
| ج ١٦ | فتح مكة - غزوة حنين والطائف - غزوة تبوك - الفترة الأخيرة
في حياة الرسول . |

الطبعة الثانية مع زيادات واسعة وتحسينات شاملة

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة : (٧ أجزاء)

- ج ١٧ (١) أبو بكر الصديق : حياته وعصره والمشكلات التي واجهها .
ج ١٨ (٢) عمر بن الخطاب والتوسع في عهده — عمر باقى الدولة الإسلامية .
ج ١٩ (٣) عثمان بن عفان : حياته وأخلاقه والعتة في عهده .
ج ٢٠ (٤) على بن أبى طالب شخصيته وحياته والمشكلات التي واجهها .
ج ٢١ (٥) طلحة بن عبيد الله (٦) الزبير بن العوام .
ج ٢٢ (٧) سعد بن أبى وقاص . (٨) أبو عبيدة بن الجراح .
ج ٢٣ (٩) عبد الرحمن بن عوف (١٠) سعيد بن زيد بن عمر .

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية : (٥ أجزاء) .

- ج ٢٤ نظرة عامة للقرآن الكريم — طريفة الوحي — نزول القرآن وتدوينه
أسماء السور وترتيبها — قراءات القرآن — فضائل القرآن — القرآن
والعلم — فضائل قراءة القرآن وحكم التطريب في أدائه والتكسب به .
ج ٢٥ خصائص القرآن والأصول التي جاء بها لخبر الناس في الدنيا
والآخرة — إصجاز القرآن ومظاهر الإعجاز — معجزات
الرسول في ميدان المقارنة .
ج ٢٦ عبر العرب والإعجاز البلاغى للقرآن — وجوه الإعجاز في
القرآن — مواجهة واقعية بين العرب والقرآن — التكرار في
القرآن : أسرارته وإعجازه .
ج ٣٤ ، ٣٥ (ترقيم مؤقت ، وفي الطبعة الثانية إن شاء الله سيأخذان رقم ٢٧ و ٢٨
وتسلسل الأرقام بعد ذلك) .

الأخلاق الإسلامية من القرآن الكريم

جميع الآيات القرآنية عن الأخلاق، وتصنيفها، وشرحها شرحاً مبسّراً.

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم : (٧ أجزاء)

- ج ٢٧ دراسات عن القصص في القرآن — قصة أصحاب الكهف .
ج ٢٨ قصة الرجلين والجنين — قصة ذى القرنين ويأجوج ومأجوج .
ج ٢٩ قصة موسى والخضر — قصة أصحاب الجنة .
ج ٣٠ قصة هزير — قصة أيوب عليه السلام .
ج ٣١ قصة قارون — قصة أصحاب الأخسود .
ج ٣٢ قصة إسماعيل عليه السلام .
ج ٣٣ قصة يوسف عليه السلام .

المجموعة الخامسة : الدولة الأموية : تاريخ يحتاج إلى إنصاف : (٥ أجزاء)

- ج ٣٦ تاريخ الدولة الأموية : الانحراف في تدوينه ومحاولة إنصافه - معاوية الخليفة الأموي الأول : عام الجماعة - الدهاء - الإصلاحات الداخلية - التوسع .

- ج ٣٨ عبد الملك بن مروان : أحد فهاء المدينة الأربعة . البطولة - السياسة - الإصلاحات الداخلية - التوسع

- ج ٣٨ نموذجان فريدان متعاصران : الوليد بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز

- ج ٣٩ التوسع العظيم في العهد الأموي وأهم ميادينه .

- ج ٤٠ الشيعة وملحدو التشيع - قصة استشهاد الإمام الحسين .

- ج ٤١ جزء عن : « من شهداء الإسلام » : حمزة بن عبد المطلب - جعفر بن أبي طالب - عمار بن ياسر - عمر المختار .

- ج ٤٢ جزء عن شهر رمضان وانتصارات المسلمين فيه .

المجموعة السادسة : الحروب الصليبية : بنوها مع مطلع الإسلام وامتداداتها حتى الآن :

- ج ٤٣ من غزوة مؤتة إلى الحرب في لبنان والحرب بين العراق وإيران
و ٤٤ (٣ أجزاء في مجلد واحد) .
و ٤٥

المجموعة السابعة : الإسلام والمرأة (٦ أجزاء) .

- ج ٤٦ المرأة قبل الإسلام في الحضارات المختلفة - ماذا قدم الإسلام للمرأة ؟
ج ٤٧ المرأة العربية من الجاهلية للإسلام : الخمسة .
ج ٤٨ سيدات من بيت النبوة : السيدة زينب بنت الإمام علي . بنتا الحسين : نفيسة وسكينة .

- ج ٤٩ سيدات في البلاط العباسي : الخيزران - زينة - بوران .

- ج ٥٠ سيدات في قصور مصر : قطر الندى - ست الملك - شجرة الدر .

- ج ٥١ سيدات في قصور الأندلس وإمام برغن في الشعر والغناء .

(الأجزاء التالية ستظهر تباعاً إن شاء الله)

(لم تلخ أعداد المكتبة الإسلامية ضمن العدد الخاص بكتب المؤلف)

كتب للمؤلف

سادساً : تعليم اللغة العربية لغير العرب وقواعد اللغة العربية

- برنامج شامل ميسر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
 - أول سلسلة من نوعها في المكتبة العربية تملأ هذا الفراغ .
 - دراسات ساملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
 - تضم هذه السلسلة الكتابين التاليين :
 - ٤٧- تعليم اللغة العربية لغير العرب : (الطبعة الرابعة)
يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى . مرحاه الهجاء ، ويتطور للقراءة ، والتعبير ،
والإملاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقفز بالطلال إلى مرحلة متقدمة في القراءة والمحادثة
والكتابة ، مستعملاً في هذه المرحلة موضوعات جذابة من الفكر الإسلامى والعربى
اختيرت من أمهات الكتب العربية تم صيغت في أسلوب مناسب ، مع أسئلة وتمارين مفيدة .
 - ٤٨- قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها : (الطبعة الرابعة)
عرض لجميع أبواب النحو العربى بطريقة تربوية سهلة .
ودراسة واضحة لأهم أبواب الصرف .
- هذا الكتاب ضرورى للمثقف العربى وغير العربى

كتب تطلعت ولزى يعاد طبعها

- ٤٩ - في قصور الخلفاء العباسيين :
- أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .
- ٥٠ - مصر في حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :
- وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .
- ٥١ - الحكومة والدولة في الإسلام :
- وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٣ من هذه القائمة .
- ٥٢ - الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحى .
- ٥٣ - النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور وأثر الفكر الإسلامى فيها .
- وأكثر مادة هذين الكتابين تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة .
- ٥٤ - الجهاد والنظم العسكرية في التفكير الإسلامى .
- وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٩ من هذه القائمة .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة المؤلف	١٧ - ١٨
مقدمة المترجم	١٩ - ٢٠

الباب الأول منابع الفكر الإسلامى

تقديم : ٢٣

تصوير سريع للحياة الإسلامية :

الإسلام وزحفه السريع ٢٥ - صور من المدينه الإسلامية ٢٥ - الأسطول
الإسلامى ٢٦ - صناعات ٢٦ - أوربا تقتبس الصناعات الإسلامية ٢٧
- النشاط التجارى ٢٨ - اختراعات حربية ٢٨ - استخراج الجواهر
والمعادن ٢٨ - رواد فى مجالات متعددة ٢٨ - معارنه ٢٩ .

منابع الفكر الإسلامى :

- ١ - المصادر الإسلامية الأصيلة ٣١
- ٢ - شعوب ذات ثقافة انتشر فيها الإسلام :

النساطرة ٣٩ - اليعاقبة ٤٠ - الملكانية ٤٠ - الترجمة من انيونانية
وأثرها فى الفكر الدينى والعلمى ٤١ - مدارس للثقافات الهندية
والفارسيه واليونانية ٤١ - نشاط فكرى يهيم للإسلام ٤٢

- ٣ - حركة الترجمة من اللغات الأجنبية (بيت الحكمة) ٤٤

الباب الثانى نشر العلوم والمعارف

- ١ - المدارس والمعاهد والجامعات ٥١
- ٢ - المكتبات ٥٤
- ٣ - مراكز ثقافية أخرى ٥٦

الباب الرابع
الأفكار العلمية وتطورها

٦١

تقديم

٦٢

الفقه والقانون

٦٣

التاريخ وعلم الاجتماع

٦٧

الجغرافيا

علم الفلك :

المزاري ٧٠ - الخوارزمي ٧٠ - الرقياى ٧١ - الكوهى ونقطة
الانقلاب الشمسى ٧٢ - أبو معشر وقوانين الجزر والمد ٧٢ -
البتانى ٧٢ - على بن يونس وعمر الخيام ٧٢ - من الفكر الإسلامى
للفكر الغربى فى الفلك ٧٣ .

علوم الرياضة :

الأرقام العربية والخوارزمى ٧٥ - عمر الخيام ٧٦ - ثابت بن فرة ٧٧ -
من الفكر الإسلامى للفكر الغربى فى الرياضة ٧٩ .

الموسيقى :

علم الموسيقى مرتبط بالرياضيات ٨٠ - إخوان الصفا والفارابى ٨١ -
من الفكر الإسلامى للفكر الغربى فى الموسيقى ٨٢ .

علوم الكيمياء بين المصريين والإغريق والمسلمين :

مقارنة ٨٣ - الكيمياء لفظ عربى ٨٥ - إخوان الصفا وعلوم الكيمياء ٨٥
- جابر بن حيان ٨٥

٨٧

العلوم الطبيعية وابن الهيثم

علم التاريخ الطبيعى :

أبو زكريا وابن البيطار ٨٩ - الجاحظ والد ميرى المصرى ٩٠ .

الطب قبل الإسلام وبعده :

مقدمة تاريخية ٩١ - المستشفيات الإسلاميه ٩٢ - العلاج المجانى ٩٣ -
أطباء فلاسمة وفلاسفة أطباء ٩٣ - أراض اكتشعها المساحون ٩٣ -

الموضوع

التشريح والتخدير ٩٣ — الطب النفسى وعلاجه ٩٤ — تطوير الطب ٩٤
— أحمد الطبرى ٩٥ — تطور الطب فى كنف الرشيد ٩٥ — تقدير الغرب
لجهود المسلمين — ٩٥ — جهود الراى ٩٦ — على بن العباس وابتكاراته
٩٧ — أطباء العمون ٩٨ — الصيدلة وابن السطار ٩٨ — الزهراوى وآلات
الجراحة ٩٩ — ابتكارات الزهراوى ٩٩ — ابن رشد وجهوده فى الطب
٩٩ — ابن سينا ٩٩ — ابن زهر ١٠٠ — المسلمون والعدوى ١٠٠ —
الطب البيطرى ١٠١ — مرید من ابتكارات المسلمين ١٠١ — كلمات
عربية فى الطب تسربت للآينية ١٠٣ .

المسلمون وطرق البحث العلمى
الصيدلة :

استقلال الصيدلة عن الطب ١٠٧ — الصيدليات العامة ١٠٨ — عقاير
أضافها العرب ١٠٨ .

الباب الخامس

الأفكار الفلسفية وتطورها

١ — المتكلمون :

١١٤ المدرسة العقلية (المعتزلة)
١١٦ المدرسة العقلية (الأشاعرة)
مصدر المعرفة ١١٧ — حاق الأفعال ١١٧ مشكلة الصفات ١١٩ —
نظرية الجوهر للقرن ١٢٠ — الإمام الغزالى ١٢٠ — تأثير الغزالى
على ديكرات ١٢١ .

٢ — الصوفية :

الصوفية المسلمون جماعةتان ١٢٧ — الله ١٢٩ — الروح ١٣٠ — الشيخ
والمرید ١٣٢ — تأثير التصوف الإسلامى وتأثيره فى الشرق والغرب ١٣٣ .

٣ — الفلاسفة :

الكنلى ١٣٨ — الفارابى ١٣٩ — ابن مسكويه ١٤١ — الأخلاق عند ابن
مسكويه ١٤٢ — الصداقة بين الآنانية والإيثار ١٤٣ — هدف الأدباء عند

- ابن مسكويه ١٤٣ — الخير قُشْرِبَ من الله ١٤٣ — نظرية النشوء والارتقاء
عند المفكرين المسلمين ١٤٤ — المثنوى للروى ١٤٥ — ابن سينا ١٤٦
ابن الهيثم ١٤٩ — ابن ماجه ١٥٠ — ابن طفيل ١٥٢ — ابن رشد ١٥٣ .
من الفكر الإسلامى للفكر الغربى فى الفلسفة ١٥٨ .
الثقافة الإسلامية فى البلاط المسيحى لتهالى أسبانيا ١٥٩ .
اليهود وآراء الفلاسفة المسلمين ١٥٩ .
الرحالة وفلسفة المسلمين ١٦٠ .
وسائل متعددة لتتفر الفلسفة الإسلامية بالغرب ١٦٠ .

١٦٣ تأثير الجامعات الإسلامية على جامعات أوروبا
التقدم فى مجال الحياة العملية :
الزراعة ١٦٥ — التجارة ١٦٧ — الفنون والصناعات ١٦٩ — الصناعات
الجلدية وصناعة النسيج ١٧٠ .

خاتمة :

١٧٣ (ضعف الفكر الإسلامى وأسبابه)

مقدمة المؤلف

طالما سألتى بعض الأصدقاء عما إذا كان هناك ما يمكن أن يسمى « الفكر الإسلامى » وللإجابة عن هذا السؤال كان لابد من مراجعة عدد كبير من المراجع لنستمد منها تفاصيل هذه الإجابة ، وفى هذا الكتاب أقدم نتيجة هذا الجهد ، لعل به أوضح هذا المقصد النبيل ، وأسهم فى إزالة الجهل بالفكر الإسلامى الذى كان له أروع نصيب فى ترقية الفكر العالمى .

وكنت قد ألقيت بعض أبحاث هذا الكتاب فى المؤتمر الهندى العشرين للدراسات الفلسفية الذى عقد فى ديسمبر سنة ١٩٤٥ ، والذى كنت رئيسه العام ، وقد نُشرت هذه الأبحاث بعد تنقيح واسع فى (The Aryan Path) وإنى مدين بالشكر لسكرتير المؤتمر وللناشر ، لإذنهما فى ضم هذه الفصول إلى هذا الكتاب على النحو الذى انتهت إليه بعد ما أحدثاه فيها من تنقيح وتهذيب .

وهذا الكتاب يحوى حديثاً قصيراً عن بعض مشاهير المفكرين المسلمين وعن أحسن ما كتبوه فى الفلسفة والعلوم ، ثم عن خير المناهج التى رسموها لأنفسهم ، وقد عقدت العزم على أن أجعل هذا الكتاب صغير الحجم سهل التداول ، ومن أجل هذا أخذت نفسى ألا أتحدث عن جماعات أخرى كثيرة من الفلاسفة والكتاب المسلمين ، وعما كتبوه ، خفى لا أخرج عن الهدف الأساسى الذى وضعته وارسمته .

وأنا مدين فى هذا العمل إلى المستشرقين والكتاب الذين سبقونى فى الكتابة عن التاريخ الإسلامى الوسيط وعن الفلسفة والفلاسفة المسلمين ، ومن هؤلاء :

(٢م الفكر الإسلامى)

جورجى زيدان

Goldziher

Philip Hitti

O,Leary

Macdonald

Renan

M, De wuif

ولا أدعى أنى جئت فى هذا الكتاب بما لم أسبق به ، وإن كنت
أتحمل أنا تبعات ما قد يكون فيه من أخطاء ، وكل ما أدعيه أنى بذلت
الجهد لأحقق رغبة ملحة ، وآمل أن أكون قد وفقت إلى أن أوضح بعض
الأفكار التى كانت لا تزال غامضة ، وغير ناضجة .

وشكراً لزملائى وتلاميذى اللذين اعتمدت عليهم فى تصحيح تجارب
المطبعة .

لندن فى سنة ١٩٥١ .

المؤلف

مقدمة المترجم

هذا الكتاب صغير في حجمه ولكنه كبير فيما حمل من أفكار ، فقد حشد فيه المؤلف ألواناً من الفكر الإسلامى فى ميادينه المختلفة بإيجاز غير عجل ، فلأ به فراغاً ملحوظاً فى الدراسات الإسلامية .

وكثيراً ما تحفل اللغات الأجنبية بأبحاث ذات قيمة عن أفانين من الفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية ، ونحن معشر الكتاب العرب نحاول أن نغنى لغتنا عن طريق الاستفادة بهذه الأبحاث ، وهناك طريقان للحصول على هذه الاستفادة .

الطريق الأول هو ترجمة هذه الكتب من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية .

والطريق الثانى هو الاقتباس من تلك الكتب فى مجال التأليف .

ولكل من هذين الطريقتين هواة ودارسون ، وكلاهما كبير القيمة فى الدراسات العلمية ، ومع هذا فأنا أميل للطريق الثانى لأنى أحب أن أضع بنفسى الخطة لفكرة معينة ، وأقرأ لها ما استطعت ، وأسكبها بقلمى ، وأستفيد فى خلال هذه الجولة الطويلة بما أستطيع قراءته من أبحاث ومؤلفات ، ولا أذكر أننى انجهمت للترجمة الكاملة ، لأننى لأحب أن أصبّ نفسى فى قالب رسمه سواى ، ولأننى - من جهة أخرى - شغلت نفسى أو شغلتنى ظروف دراساقى بسلاسل من الأبحاث إحداها عن « التاريخ الإسلامى » والثانية عن « الحضارة الإسلامية » والثالثة عن « مقارنة الأديان » فلم يترك لى هذا المنهج فرصة لترجمة ما يكتبه الآخرون .

ثم التقيت بهذا الكتاب « الفكر الإسلامى : منابعه وآثاره » وقرأته ، فوجدت من الضرورى أن أتخلى عن اتجاهى السابق ، وأن أقوم بترجمته . لأنه عميق الصلة بموسوعة الحضارة ، فهو جولة دقيقة فى منابع الفكر الإسلامى . ووسائل نشره ، ونماذج طيبة منه ، فكانت هذه نقطة التقاء منهمة بين أنجائى وبين هذا الكتاب المائل بين يذى القارئ ، ووضع لى أن من الخير أن أستفيد به كله ، وبالجهد الكبير الذى بُذل فيه ، وإمعاناً فى عمق الصلة بين هذا الكتاب وبين موسوعة الحضارة الإسلامية التى كتبها فى عشرة أجزاء جعلت هذه الترجمة تمثل جزءاً من أجزاء هذه الموسوعة .

وقد كتبت للمؤلف والناشر استأذن فى الترجمة وسرعان ما استجابا مشكورين فأذنا لى بذلك ، وإنه ليسرنى أن أقدمه للمكتبة العربية راجياً أن أكون به . قد أضفت لبنة فى صرح الحضارة الإسلامية ، وأسهمت فى إبراز معالم تاريخنا المجيد .

وقد أعيد طبع هذا الكتاب عدة مرات ، وفى خلال هذه المدة قابلت أفكاراً متعددة ترتبط بالموضوعات التى وردت بهذا الكتاب ، وقد أضفت هذه الأفكار للترجمة حتى أصبح الكتاب مزيجاً من الترجمة والتأليف ، ولا مانع من ذلك فالهدف هو خدمة العلم بوجه عام والحضارة الإسلامية بوجه خاص .

والله الموفق والهادى للصواب

دكتور أحمد شلبى

فى الثالث من يوليو سنة ١٩٨٦

الباب الأول

منابع الفكر الإسلامى

تقديم :

خطت الأفكار الفلسفية خطواتها الأولى في العالم منذ أوائل القرن السادس قبل الميلاد ، وكانت هناك مراكز أربعة ترعرعت فيها هذه الأفكار الفلسفية ، وكانت تلك المراكز تمثل العالم المتمدين آنذاك ، وهي الهند والصين وفارس واليونان .

ولم تكن هذه المراكز متماثلة القوة ، بل امتاز منها منبعان هامان هما الهند واليونان (١) ، فقد تطورت فيها هذه الدراسات حتى أصبحت — بعد

(١) هناك مكان لم يذكره المؤلف وهو يعد في الحقيقة مهد الحضارة الأولى، فقد نبتت فيه مدنية الجنس البشري ، وترعرعت حتى وصلت إلى مدى عظيم ، وكان منبعاً تتلمذ عليه الفكر اليوناني واقتبس منه دعائمه، وذلك المكان هو مصر كما ذكرنا في الجزء الأول من موسوعة الحضارة الإسلامية ولنقتبس فيما يلي كلمات عالم متخصص في هذا المجال هو الدكتور عبد المنعم أبو بكر الذي يقول في بحث نشر بصحيفة الأهرام يوم ١٧-٦-١٩٧١ :

على هذا المسرح العظيم الممتد على ضفاف النهر . نشأ التاريخ كما نشأت الزراعة والتجارة ، وعرف استئناس الحيوان، وكُتبت خطابات الاعتماد ، وارتقت الصناعات والحرف وأقيمت الحكومات والشرائع ، وعرفت حروف الهجاء ، واخترع الورق والحبر ، وألفت الكتب ، وشيدت المدارس ، وظهرت علوم الرياضة والطب والهندسة ، والفلك ، وصورت دائرة البروج السماوية ، وعرفت الحقن الشرجية ، وطرق صرف المياه ، وصنع الخزف المطلي والأثاث الدقيق ، واستخدمت العطور ومساحيق التجميل .

... وقصارى القول إن مصر هي أم الحضارة وإنه ما من شيء ننعم به الآن إلا كان للمصريين فضل أول في ابتكاره ... ولم يبتدع اليونان إذن أسس الحضارة الإنسانية =

الناحية الجغرافية ، أقرب إلى العالم الإسلامى ، ومن هنا كان نصيب أوروبا من ثقافة المسلمين عميقاً وشاملاً .

تصوير سريع للحياة الإسلامية

الإسلام وزحفه الواسع السريع :

ويتضح من ذلك أن من الضرورى أن نخصص مساحة—ولو صغيرة — للحديث عن الإسلام ودوره الفكرى فى العالم ، وقد بزغت شمس الإسلام فى أوائل القرن السابع الميلادى ، فكان نبعاً جديداً من منابع الفكر ، انبثق من قلب الجزيرة العربية ، وسرعان ما تضخم هذا النبع حتى أصبح بحراً فياضاً بالقوة والحياة ، وأمد الإسلام الإنسانية بروح جديد لم يعرف التاريخ له مثيلاً ، وقد حاولت فارس والروم أعظم إمبراطوريتين فى تلك الأيام أن توقفأمدّه الزاحف، ولكنهما لم تصمدا فى النضال طويلاً، واكتسحهما تيار الإسلام ؛ ولم يمض قرن واحد على وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم حتى كان الإسلام قد امتد من المحيط الأطلسى فى الغرب إلى الهند وحدود الصين فى الشرق ، ومن بحر خوارزم فى الشمال إلى أعلى شلالات النيل فى الجنوب ، وذلك يعدل أكثر من نصف العالم المعروف حينئذ ، فأصبح الإسلام يسوس إمبراطورية أعظم من الإمبراطورية الرومانية أيام كانت فى أوج عظمتها، وقد حافظت هذه الإمبراطورية الضخمة على مكانتها على الرغم من كثرة الاضطرابات ومن عوامل الانحلال والحروب التى أصابتها من حين لآخر .

صُور من المدينة الإسلامية :

ومما تفخر به هذه الإمبراطورية أن كان لها لغة واحدة هى اللغة العربية

يتحدث بها هؤلاء الملايين من المسلمين ، وكان بها عدد كبير من المدن الآهلة بالسكان الذين يصل عددهم في بعض المدن إلى بضعة ملايين من الأشخاص ، وكثيرون منهم كانوا يقطنون قصوراً جميلة ذات أثاث ثمين ورسوم فنية وستائر رائعة ، وقد تدلت من سقفها ثريات بديعة ، وأحاطت بالبناء حدائق فاتنة بها أروع وأجمل الرياحين .

وفي المدن الإسلامية كانت تنتشر آلاف الحمامات العامة ، كما كانت تضاء شوارعها وأزقتها في المساء بالمصابيح ، وقد بدت أكثر طرقاتها ممهدة .

الأسطول الإسلامي :

وكانت الإمبراطورية الإسلامية في العصور الوسطى تملك أكبر أسطول عرفه التاريخ حتى ذلك الحين ، فكان يسيطر على المحيط الأطلسي من ساحل أسبانيا شمالاً حتى غرب إفريقية جنوباً ، كما كانت له السيطرة على البحر الأبيض المتوسط ، والبحر الأحمر ، والمحيط الهندي ، وبحر الصين ، والمحيط الهادئ .

وكان الأسطول الإسلامي التجاري يقوم برحلات شهرية تجارية يسير فيها عبر المحيط الأطلسي حتى المحيط الهادئ ، ويرسو من حين لآخر على أهم الموانئ الممتدة على طول الطريق ومنها الموانئ الهندية .

صناعات :

وفي العالم الإسلامي الوسيط قامت صناعات ذات بال ، وقد حلق المسلمون لإجادة كثير من المنتجات ، فمنتجات الجلود والمنتجات المعدنية ،

والسجاجيد ، والآجر ، والفخار ، والروائح العطرية ، والورق ، والزجاج والحلى ، والمنسوجات القطنية والحريرية والصوفية .

أوروبا تقتبس الصناعات الإسلامية :

وقد نالت هذه الصناعات وبخاصة المنسوجات إعجاب الشرق والغرب على السواء ، وكانت المصانع الإسلامية منتشرة في العالم الإسلامي من بلاد الفرس إلى شواطئ الدانوب ، وجنوباً حتى مرتفعات مصر العليا ، وقد استعارت أوروبا بعض الأسماء العربية الخاصة بالجلود والمنسوجات القطنية والحريرية وأطلقتها مع قليل من التحريف على مصنوعات مشابهة، ومن تلك الأسماء :

Cordovan : جلد وقد جاء في Oxford Dictionary في تفسير هذه الكلمة ما يلي : جلد منسوب إلى Cordova (قرطبة) لشهرتها في صناعة الجلود في العصور الوسطى .

Morocco : جلد ابن مأخوذة من Morocco أى مراکش .

Muslin : نسبة إلى الموصل وتطلق في اللاتينية على نوع رقيق من القماش .

Cotton : وأخذت لفظ Cotton بذاتها لتؤدي نفس المعنى .

Domask : قماش مشجر نسبة إلى دمشق .

Fustat : قماش منسوب إلى القسطنطينية .

Taffeta : نوع رقيق ناعم من القماش منسوب إلى تفتا (مدينة فارسية)

والنيل إلى أمكنة مختلفة بعيدة عن المجرى الأصلي لهذه الأنهار . وعرفت أوروبا عن المسلمين أنواع التوابل والبهار والطيب والروائح والتنجيل والسكر والبن ، كما أخذت عنهم نظمهم الإدارية ، وطرق حياتهم المنزلية ، ووسائل الزراعة ، وطرق الري ، وفن البناء ، وعلم الخط ، والموسيقى ، وكثيراً من الملابس والطعام والألعاب الرياضية .

وقد تم هذا للمسلمين قبل أن تقع عين كولومبس على شواطئ أمريكا بعدة قرون ، وقبل أن يستطيع فاسكودى جاما أن يصل إلى الأرض التي حلم بها كولومبس بقرون عديدة ، وقد كان لهذا الأخير مرشد عربي اسمه « أحمد » كانت له خبرة بالبحار ، فاستطاع بمهارته أن يقود الرحالة الأوربي إلى الدنيا الجديدة .

مقارنة :

وقد كانت حياة المسلمين في المستوى الذي سبق إجماله « في حين لم تحظ شوارع لندن بمصباح واحد فيها ، ولم تمهد شوارع باريس إلا بعد ذلك بعدة قرون » « وبينما كانت حياة المسلمين على هذا الوصف كان أمراء الألمان والفرنسيين والإنجليز يعيشون في مساكن يندر أن تُفصل فيها حظائر الماشية عن مساكن الناس ولم يكن بها مداخن ولا نوافذ ، بل كانوا يعملون ثقباً لينفذ منه الدخان إلى الخارج (١) » وكان القسس في أوروبا يعدون من الفضائل إلا يستحم الإنسان ولا يغير ملابسه عدة شهور .

(١) ما بين قوسين اقتبس المؤلف من مصدر لم يعينه .

١ - المصادر الإسلامية الأصيلة

وهناك حقيقة هامة تغافل عنها أو لم يفتن لها الكتاب المسيحيون الذين كتبوا عن تاريخ الحضارة الإسلامية ، وهذه الحقيقة هي أن القوة الدافعة التي جعلت المسلمين يهتمون بالعلم مصدرها القرآن الكريم وأحاديث الرسول .

ولنطف طوفة سريعة بين آيات القرآن الكريم لنرى صوراً مما احتواه متصلاً بهذا الموضوع ، ونبدأ بأن نسوق الآيات التي بدأ بها نزول الوحي ، والتي هي أول آيات نزلت من القرآن ، ثم نستمر في ذكر آيات أخرى تحمل نفس المعنى من الذكر الحكيم ، قال تعالى :

— اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم (١) .

— وقل رب زدني علماً (٢) .

— هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (٣) :

— ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون (٤) .

(١) سورة العلق الآيات ١ - ١٥ .

(٢) سورة طه الآية ١١٤ .

(٣) سورة الرمر الآية التاسعة .

(٤) سورة الأعراف الآية ١٧٩ .

- وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبيّنه لقوم يعلمون (١)
- يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يُؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ،
وما يذكر إلا أولو الأبواب (٢) .

- وقال لهم نبيهم : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ، قالوا : أنى
يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه . ولم يؤت سعة من المال ، قال :
إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم (٣) .

وفي القرآن الكريم ما يدل على أن بالعلم يفضل الإنسان الملائكة ويكون
خليفة الله في الأرض (٤) .

وقد قرر Deutsch أن القرآن كان عاملاً هاماً في رفع مستوى
المسلمين وتوجيههم إلى دراسة العلم وخدمة الفكر ، وهالك ما قاله :
« لقد كان القرآن هو الحافز الذي دفع المسلمين إلى أوربا ليكونوا بها سادة
وملوكة ، وليرفعوا منار الإنسانية في وقت كان الظلام مسيطرأ في كل اتجاه ،
وبدافع القرآن رفع المسلمون لواء الحكمة ، وخدموا العلم والمعرفة ، وأحيوا
علوم السابقين ، وعلموا الفلسفة والطب والفلك ، وفن البناء في أسمى صورة ،

(١) سورة الأنعام الآية ٩٨ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٩ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٤٧ .

(٤) اقرأ قوله تعالى . وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ،
قالوا أجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن سبج محمدك ونقدس لك ، قال
إني أعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني بأسماء
هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت الحكيم ،
قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات
والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا
إلا إبليس (سورة البقرة الآية ٣٠ وما بعدها)

بالغرب والشرق على السواء ، مما أتاح لنا أن نصل إلى النهضة العلمية الحديثة .
ولهذا يجدر بنا ألا نكف عن البكاء كلما تذكرنا اليوم الذى سقطت فيه
غرناطة » .

فإذا وصلنا إلى أحاديث الرسول فى هذا الشأن وجدنا ذخيرة واسعة
نسوق منها الأمثلة الآتية :

- أول ما خلق الله العقل ، ولم يخلق أفضل منه .
- من غادر أهله فى طلب العلم فهو سائر فى سبيل الله .
- طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .
- العلم بمكّن صاحبه أن يفرّق بين الحق والباطل ، ويقوده إلى الطريق
المستقيم ، وهو صديق الضارب فى البيداء ، وأمان فى الوحدة ، ورفيق من
لا رفيق له ، ورائد إلى الخير ، وسند فى الضراء .
- العلم زينة أمام الأصدقاء ، وسلاح أمام الأعداء .
- اطلب العلم من المهد إلى اللحد .
- اطلب العلم ؛ فطلب العلم جهاد فى سبيل الله ، والحديث به ثناء
على الله . والسعى لتحصيله عبادة ، وتعليمه زكاة .
- ترفرف الملائكة بأجنحتها فوق طالب العلم .
- من عظم العالم فقد عظمى .

وهناك بعض أحاديث يقارن فيها الرسول صلى الله عليه وسلم العلم من
جانب بالعبادة والشهادة من جانب آخر ، ومنها نسوق ما يلى :

(م ٣ — الفكر الإسلامى)

٢ - شعوب ذات ثقافة

انتشر بينها الإسلام

تكلمنا فيما سبق عن التغيير العظيم الذى أحدثته المصادر الإسلامية الأصلية فى الإنسان المسلم أو بالتالى فى الدراسات، ونتجه هنا للحديث عن أثر آخر فإن هناك مصادر أخرى للفكر اغترف منها المسلمون ، وكانت مراكزها فى سوريا ومصر وفارس ، ذلك أن الفلسفة اليونانية التى اتخذت جنودها من الشرق عادت قبل ظهور الإسلام إلى الإسكندرية (١) ومنها خطت إلى سوريا ، وجاءت الأفلاطونية الحديثة التى ألفها

(١) انقضى الإسكندر المقدونى على بلاد اليونان فأخضعها لسيادته ، ثم زحف على الشرق ففتح مصر والشام والعراق وفارس وأسس مدينة الإسكندرية ، ثم ظهرت مدرسة الإسكندرية التى التفت فيها علوم هذه البلاد جميعاً وبخاصة علوم اليونان ، ولعل السبب الذى حدا بالإسكندر أن يختار الإسكندرية هو موقعها بين الشرق والغرب ، وقد صحت هذه النظرية ، فإن الإسكندرية أصبحت حلقة اتصال بين الطرفين ، وامتزجت فى مدرستها الآراء والمذاهب . ويقول Guge : تقابل الشرق والغرب فى شوارع الإسكندرية . وفى قاعات الدرس بها ، وفى معابدها ، وفيها اصطبغت اليهودية أولاً ثم المسيحية ثانياً بالصبغة اليونانية (قصة الفلسفة اليونانية ص ٢٣٨) ويمكن أن نضيف إلى ما قاله Guge ، أنه عن طريق مدرسة الاسكندرية ظهرت آثار الفلسفة اليونانية فى فلسفة المسلمين ، كما ظهرت فى أقوال كثير من زعماء الفرق الإسلامية وبخاصة المعتزلة .

« المترجم »

أفلوطين (١) (٢٦٩ م) Plotinos وامتزجت بعناصر فلسفة أرسطو عن طريق فورفوريوس Propyry وكان هذا يعلم في روما حوالى نهاية القرن الثالث الميلادى. فانتقلت أفكاره إلى الإسكندرية بواسطة كليمنت وأوريجين (Clement and Origen) اللذين كانا يحاولان مزج الفلسفة المعاصرة بالنظريات المسيحية ، ولكن سرعان ما قامت المكائد والمؤمرات التى اضطرت Origen إلى مغادرة الإسكندرية قاصداً فلسطين حيث أنشأ فى « قيسارية » مدرسة على غرار مدرسة الإسكندرية ، وبعد ذلك بفترة وجيزة أسس Malchion فى أنطاكية مدرسة على نفس الطراز ، وبعد حوالى خمسين عاماً أسست مدرسة مشابهة فى نصيبين بين الجماعات التى تتكلم بالسريانية ، ولكن هذه المدرسة تحولت بعد مدة إلى الرها ، ثم فى منتصف القرن الخامس الميلادى عادت مرة أخرى إلى نصيبين .

وبهذا كثرت فى الشرق المدارس التى تعلم فيها مختلف الثقافات الفلسفية

(١) الأفلاطونية الحايثية the New - Platonism تنسب إلى أفلوطين الذى ولد سنة ٢٠٥ م فى ليكوبوليس (أسيوط) والذى لاتعرف جنسيته بالضبط ، أما واضح هذا المذهب فهو فى الحقيقة أمرنيوس سكاس Ammonius saccas الذى مات سنة ٢٤٢ م ، وكان أفلوطين من أكبر تلامذته فنسب له هذا المذهب ، وهذه الفلسفة اسكندرية فيها طابع الشرق وأحلامه ، ويطلق عليها العرب (مذهب الاسكندرانيين) ، وفى سنة ٢٤٥ قصد أفلوطين إلى روما واستقر بها . وأسس مدرسته التى قام عليها حتى مات سنة ٢٦٩ أو ٢٧٠ ، ومن أشهر تلامذته فورفوريوس وكانت له معرفة بمذهب أفلاطون بالإضافة إلى الأفلاطونية الحديثة ، وقد صحب فورفوريوس أستاذه فى روما . ثم انتقل إلى الاسكندرية ليساعد بعض المسيحيين الذين أرادوا أن يوفقوا بين فلسفة الأفلاطونية الحديثة وبين الدين المسيحى ، ولكن هذه المحاولة اضطهدت من أغلب المسيحيين الذين كانوا يرون فى الأفلاطونية الحديثة روحاً وثنية ، لا يمكن التوفيق بينها وبين الأديان السماوية .

« المترجم »

المذاهب التي تتحدث عن طبيعة المسيح (*)

وفي هذا العصر المسيحي ظهرت المذاهب التي تتحدث عن طبيعة المسيح ، وشغلت هذه المذاهب فلاسفة العصر ومدارس العصر التي ذكرناها ، وأهم هذه المدارس في الشرق هي :

(١) النساطرة .

٢ - اليعاقبة .

٣ - الملكانية .

وستتحدث فيما يلي عن كل من هذه المذاهب .

النساطرة :

والنساطرة تتبع مذهب نسطوريوس بطريرك القسطنطينية (٤٢٨ - ٤٣٠ الذي حرّمه المجمع المسكوني سنة ٤٣١) وقد اعترض هذا على تسمية مريم العذراء «والدة الإله» وقرر أن للمسيح خصائص الإنسان في الوجود والإرادة والفعل وأن اتحاده مع الذات الإلهية لم يبدأ إلا بعد ولادته ، وعلى هذا لم تلد العذراء إلهاً وإنما ولدت إنساناً لأن المخلوق لا يلد الخالق ثم اتحد بعد ذلك مع الذات الإلهية ، فأصبحت له طبيعة واحدة ومشية واحدة .

وقد تبنت كنيسة انطاكية مذهب نسطوريوس . ثم تخلت عنه وارتبطت به حتى الآن كنيسة فارس فأصبحت تدعى الكنيسة النسطورية ، ويكثر أتباعها في العراق وإيران والهند .

والنساطرة كانوا في الأصل ضمن أتباع الكنيسة الأرثوذكسية ولكنهم

(*) هذا الموضوع من إضافات المترجم .

بأنجاهاتهم تلك انخرفوا عنها فقررت الكنيسة الأرثوذكسية اعتبارهم ضالين وألف هؤلاء كنيسة خاصة بهم سميت كنيسة النساطرة .

اليعاقبة :

عاش اليعاقبة في مصر والنوبة والحبشة ، ويدور مذهبهم على القول بأن المسيح هو الله والإنسان اتحدا في طبيعة واحدة هي المسيح ، وأن الكلمة (أى الله) انقلبت لحما ودما فصار الإله هو المسيح ، فاللاهوت ظهر في الناسوت ، وصار هو هو ، فالمسيح جوهر من جوهرين ، أو طبيعة واحدة من طبيعتين إحداهما إلهية والأخرى إنسانية ، ولكنهما تركبتا كما تركبت النفس والبدن ، فالعذراء هي والدة الإله ، وقد أعلن هذا المذهب في مجمع لإفسس بالأناضول سنة ٤٣١ .

وينسب اليعاقبة إلى يعقوب البردعي أسقف الرها أحد تلاميذ ديسفوروس .

الملكانية أو الملكيون :

طائفة مسيحية منتشرة في سورية ومصر وفلسطين بتحدثون العربية غالباً ، سموا الملكيين لأنهم أيدوا القرار الذي ارتضاه الملك مرقيانوس الذى عضد مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ وكان هذا المجمع قد ناهض القول بأن للمسيح طبيعة واحدة ، وقال إن للمسيح طبيعتين ومشيتين أى له ذاتان وكيانان هما الإله والإنسان ، وأن مريم ولدت الاثنين جميعاً .

وبعض الملكانية كاثوليك ولذلك يسمون الروم الكاثوليك ، وبعضهم أرثوذكس ويسمون الروم الأرثوذكس .

الترجمة من اليونانية وأثرها في الفكر الدينى والعلمى :

والآن نستطيع أن نقرر أن الحقبة بين ظهور الفرق المسيحية وبين فتح المسلمين لسوريا ، كانت غنية بالترجمة من اليونانية إلى السريانية ، وغنية كذلك بالتعليقات والشروح ، ومرجع ذلك أن الفرق المسيحية كانت تتلمس في الفلسفة اليونانية عوناً لها في شرح وتأييد معتقداتها ، ولكن يجدر بنا أن نقرر كذلك أن معظم النشاط في الترجمة كان منصباً على علم اللاهوت والدراسات الدينية ، ولم تنل العلوم الأخرى ما تستحقه من عناية إذ كان الاهتمام بهذه العلوم محدوداً ، فلم تتطور ، ولم يسجل الباحثون فيها أى كشف يذكر .

وعلى كل حال فقد اهتمت مدرسة الإسكندرية - بجانب علم اللاهوت - بالطب وكانت تلقى فيه محاضرات وشروح لستة عشر كتاباً من كتب جالينوس ، وبجانب الطب اهتمت مدرسة الإسكندرية أكثر من غيرها بأبحاث في الكيمياء والفلك ، حتى أنه لما جاء الفتح الإسلامى كانت الإسكندرية مشهورة باتجاهها العلمى في دراستها .

مدارس للثقافات الهندية والفارسية واليونانية :

وفي منتصف القرن السادس الميلادى اعتنق المسيحية رجل مجوسى الأصل اسمه (Mar anpa) وأسس مدرسة في المدائن على غرار مدرسة نصيبين ، وبعد ذلك بقليل أسس أنوشروان ملك الفرس مدرسة مجوسية في جنديشابور ، وملك الفرس هذا هو الذى كان قبل ذلك وافق أن يستوطن بلاده الفلاسفة اليونانيون المبعدون عندما نفاهم جستنيان الامبراطور

البيزنطى وأغلق مدارسهم فى أثينا . وتمتاز هذه المؤسسة الجديدة التى رعاها ملك الفرس بأنها لم تقتصر عنايتها على الدراسات اليونانية والسريانية بل اتجهت أيضاً إلى فلسفة الهند وعلومها . فترجم منها قدر كبير إلى اللغة البهلوية ، وكان الطب اليونانى والطب الهندى يعلمان فى هذه المدرسة ويتطوران .

وإلى جانب هذا كان هناك مدرسة فى حران أنشئت منذ عهد الإسكندر واستمرت مدة طويلة مركزاً للدراسات اليونانية الوثنية والدراسة الأفلاطونية الجديدة كما كان يدرسها فورفوروريوس ، وكانت هذه المدرسة إحدى الواحات التى احتمت بها علوم اليونان .

نشاط فكرى يهيء لاستقبال الإسلام :

وأصبحت بذلك الإسكندرية ونصيبين وقنشرين والمدائن وحران أرضاً خصبة كأنما كانت تعد لاستقبال الفكر الإسلامى الذى كان على وشك الظهور والانبثاق ، ولم تستطع هذه المدارس المتعددة طيلة مدة وجودها أن تنتج عدداً ذا بال من الفلاسفة أو العلماء ذوى المواهب الممتازة ، أو أن تنتج كتباً وأبحاثاً ذات قيمة خالدة ، وكل ما قدمته هذه المدارس للإنسانية هو أنها احتفظت ببيئة يدب فيها النشاط العقلى والفكرى ، فكانت هذه البيئة تربة خصبة تستطيع — إذا بلورت فيها البلور الصالحة — أن تنتج صفوة من الرجال والباحثين ، ثم جاء الإسلام فأمد هذه التربة الخصبة ببلور صالحة ، وغلثها روح الإسلام بينوع لا ينضب من الفكر والمعرفة ، فظهر فى ذلك الجو المزدهر مجموعات من العلماء والفلاسفة الممتازين الذين لا يعلمون بالاعشرات ولكن بالمثاث ويقول Ousey إن هذه المدارس قلعت التربة التى استطاع المسلمون عليها أن يثبتوا فلسفة وهاوماً دينية وطباً ورياضة وغيرها ، وأن يحملوا منها علوماً مزدهرة عميقة الجذور .

٣ - حركة الترجمة من اللغات الأجنبية

كانت النهضة الفكرية عند المسلمين - بجانب المنبعين السابقين - تعتمد اعتماداً ملحوظاً على نشاط واسع في الترجمة من السنسكريتية والفهلوية والسريانية واليونانية ، ففي سنة ٧٦٢ م وضع المنصور - الخليفة العباسي الثاني - حجر الأساس لعاصمته الجديدة (بغداد) ، وجمع له صفوة من مختلف النواحي ، وشجع على ترجمة كتب العلوم والآداب من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية ، فاستجاب كثير من العلماء والباحثين لهذه الرغبة ، ودفعهم التشجيع الأدبي والمادى للإجادة والإكثار ، وكان أغلب هؤلاء من اليهود أو المسيحيين أو من حديثي الدخول في الإسلام ، ومن أبرز هؤلاء عبد الله بن المقفع (٧٥٧ م) الذي كان مجوسياً ودخل الإسلام ، وأشهر ما ترجمه (كتاب كلیلة ودمنة) ، وقد وضع الأصل بالسنسكريتية ، ثم ترجم إلى الفهلوية ، ومنها ترجمه ابن المقفع إلى العربية ، وكان المقصود من هذا الكتاب تعليم الآداب بواسطة أقاصيص على ألسنة الحيوانات ، وقد فقد الأصل السنسكريتي لهذا الكتاب ، كما فقدت ترجمته الفارسية ولم يبق من هذه الترجمة إلا أجزاء لا تزال موجودة في البانشاتانترا (The banshatntra) والمهابهارتا (Maha Bharta) وقد حفظته اللغة العربية للفكر الإنساني ومنها ترجم هذا الكتاب إلى جميع اللغات الأوروبية تقريباً وإلى كثير من اللغات الأخرى .

وهناك عالم آخر هو رحالة هندي ، وقد أدخل هذا إلى بغداد كتاباً هاماً في علم الفلك إسمه سندھانتا (Sindhanta) وساعد في ترجمته إلى اللغة العربية ، وكذلك فعل هذا الرحالة بالنسبة لكتاب آخر في الرياضيات .

ومن مشاهير المترجمين : الطبيب النسطوري جورجيس بن يختيشوع (٧٧١ م) ، وكان المنصور قد استدعاه من جند يشابور ليكون طبيبه الخاص ثم اشتغل بالترجمة ، ومن المترجمين أيضاً يختيشوع بن جورجيس (٨٠١ م) وجبريل تلميذ يختيشوع (٨٠٩ م) وعيسى بن شاذان وقسطا بن لوقا (٩٢٣ م) ، والحجاج بن يوسف بن مطر (الذي عاش بين سنتي ٧٨٦ - ٨٣٣ م) وهو أول من ترجم كتاب العناصر لإقليدس كما أنه من أوائل من ترجموا كتاب المجسطي لبطليموس (وكان يحيى بن خالد البرمكي أول من ترجم هذا الكتاب للرشد) ومن المترجمين أيضاً ثاوفيل ابن توما الذي ترجم بعضاً من إلياذة هوميروس ، وأبو يحيى بن البطريق (المتوفى بين ٧٩٦ ، ٨٠٦) الذي ترجم أكثر كتب جالينوس (٢٠٠ م) وكتب أبقرات (٤٣٦ ق م) ، كما قام بترجمة أخرى لكتاب المجسطي لبطليموس والعناصر لإقليدس ، وعلى كل حال فلم يكن بين هذه التراجم العربية التي ظهرت في هذا الوقت المبكر ترجمة شاملة شافية .

بيت الحكمة :

وفي سنة ٨٣٢ م شيد الخليفة المأمون (١) ببغداد أول مجمع علمي (Academy) ومعه مرصد ومكتبة جامعة وهيئة للترجمة ، ويقول Hitti (٢) : إن هذا المعهد برهن على أنه أهم مجمع علمي شيد منذ إنشاء جامعة الإسكندرية في النصف الأول من القرن الثالث ق . م ، وفي هذا المعهد ترجمت أمهات

(١) من المرجح أن بيت الحكمة أسسه هارون الرشيد وإن كان قد ازدهر في عهد المأمون . انظر تاريخ التربية الإسلامية ص ١٦٩ وما بعدها للدكتور أحمد شابي .

الكتب من اللغات المختلفة إلى اللغات العربية ، وعين يحيى بن ماسويه (عاش بين سنتي ٧٧٧ ، ٨٥٧ م) لرئاسة هذا المجمع ، وهو طبيب نسطورى وتلميذ لبختيشوع ، ويعرف عنه أنه ترجم للرشيد عدداً من المخطوطات الطبية ، وقد ظل هذا المعهد يواصل نشاطه في خدمة الترجمة حتى بعد انتهاء العصر العباسي الأول ، ويرى أكثر الباحثين أن صفوة ما قام به هذا المجمع من جهود علمية تمّ إبان كانت الرئاسة مسندة إلى حنين ابن إسحاق (٨٧٣ م) تلميذ يحيى بن ماسويه وحواريه ، وقد كان حنين ابن إسحاق في بادئ الأمر تابعاً لابن ماسويه الطبيب ، فكان يساعد في إعداد بعض الأدوية ، ثم كلفه أولاد موسى بن شاكر بأن يطوف بالبلاد التي تتكلم اليونانية ليجمع منها المخطوطات ذات القيمة العلمية الكبيرة لترجمتها ، ثم أسند له الإشراف على دار الحكمة وعلى هيئة الترجمة فيها ، وأخيراً عين طبيباً خاصاً للخليفة المتوكل .

وقد استطاع حنين — بمساعدة المترجمين في بيت الحكمة — أن ينقل إلى اللغة العربية كتب إقليدس (حوالى ٣٠٠ ق م) وبعضاً من كتب جالينوس وأبقراط وأرشميدس وأبولونوس ، ونرجم لأفلاطون كتاب الجمهورية وكتاب السياسة وكتاب القوانين ، وترجم المقولات والطبيعات والحلقيات وهى بعض مؤلفات أرسطو ، وشروح تامسطيوس Themistius على الكتاب الثلاثين فيما وراء الطبيعة ، والعهد القديم وكتاباً في الطب ينسب إلى بولس الأجنينى ، ونقل إسحاق بن حنين إلى اللغة العربية كتباً كثيرة منسوبة إلى أفلاطون ، وأرسطو ، وفورفوروريوس ، والإسكندر الأفروديسى وغيرهم

وكتب أبو بشر بن يونس (٩٣٩ م) شروحاً وتعليقات على المقولات لأرسطو وإيساغوجى لفورفوروريوس ، وبجانت هذا فقد أخرج ترجمة عربية

لكتاب الشعر لأرسطو كما ترجم شروح الأسكندر الأفروديسي على كتاب الكون والفساد وشروح ناسطيوس على الكتاب الثلاثين فيما بعد الطبيعة.

ومن بين صفوة المترجمين الذين كانوا يعملون في بيت الحكمة حييش ابن أخت حنين وعيسى بن يحيى وموسى بن خالد .

وكما كان حنين على رأس المترجمين النساطرة فقد كان ثابت بن قرة (٩٠١ م) زعيما لجماعة الصابئة الذين كان مركزهم حران تلك المدينة ذات التاريخ الحافل في خدمة العلم والتي أخذت شهرة خاصة في الرقي بالدراسات الفلسفية والطبية ، وقد ترجم ثابت وتلاميذه أهم الكتب اليونانية في الرياضة والفلك ، كما قام بإصلاح وتهذيب كثير من الترجمات التي تمت قبله ، وأصبح ثابت فيما بعد أعز صديق للخليفة العباسي المعتصم ، وواصل أولاد ثابت وأحفاده القيام بالأعمال العلمية التي كان ثابت يقوم بها . فقد حذا حذوه أبناؤه إبراهيم وسنان وحفيده ثابت وإبراهيم ، وابنان لأحفاده هما إسحاق وأبو الفرج .

وفي النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي برز المترجمون اليعاقبة وكان أشهرهم يحيى بن عدي (٩٧٤ م) وأبو على عيسى بن زرعة (١٠٠٨ م) وقد أعاد يحيى النظر في الترجمات التي تمت قبله ، فأصلح فيها وحققها كما قام بعدة ترجمات جديدة لبعض الكتب الهامة مثل المقولات والشعر وما بعد الطبيعة لأرسطو ، والقوانين لأفلاطون ، ونثر المقولات للأسكندر الأفروديسي وترجم ابن زرعة كتاب المقولات وكتاب التاريخ الطبيعي مع تعليق جون فيلو بون John philoponus (الذي يسميه العرب يحيى النحوي)

ومن هذا يظهر أن حركة الترجمة إلى اللغة العربية كانت واسعة النطاق وشملت ما أنتجه الأقدمون من فلسفة وعلم ، ولم تمض لهماون عاماً على

تأسيس بغداد حتى كان العرب يقرءون بلغتهم . معظم ما كُتبه أرسطو وما نسب إليه ، ككتاب علم المعادن واستخراجها ، والميكانيكا والإلهيات ، كما كان العرب يقرءون بلغتهم أكثر مؤلفات أفلاطون والأفلاطونية الحديثة ، وأهم ما كتبه أبوقراط وجالينوس وأقليدس وبطليموس وغيرهم من الكتّاب والشراح ولم يقفوا عند علوم اليونان بلى تجاوزوها إلى الترجمة من الفارسية والهندية ، وبينما كان المسلمون يعيشون في هذه النهضة العلمية كانت عاوم اليونان غير معروفة تقريباً للآوريين ويقول Hitti (١) : إنه « بينما كان الرشيد والمأمون يخرجان كنوز الفاسمة اليونانية والفارسية كان معاصروهم في الغرب من أمثال شارلمان وسادة مملكته يتعثرون في كتابة أسمائهم » .

الباب الثاني

نشر العلوم والمعارف

مقدمة :

في الباب السابق رأينا أن منابع الفكر الإسلامي كانت إما داخلية إسلامية ، أو خارجية مستمدة من ثقافة الآخرين ، ونقرر هنا أن ما إن حصل المسلمون على هذه الثقافات من هذا المنبع أو ذاك ، حتى أخذوا في نشرها ، وقد بذلوا لذلك جهوداً جبارة ، وسلكوا سبلاً متعددة ، فلم تمض مدة طويلة حتى كانت الثقافات قد غمرت العالم الإسلامي ، أو كادت ، وكانت السرعة التي انتشرت بها العلم أشبه بسرعة انتشار الكهرباء من مصدره في شبكة واسعة من الأسلاك .

وأهم وسائل نشر العلم عند المسلمين كانت ثلاثة هي :

١ - المدارس والمعاهد والجامعات .

٢ - المكتبات .

٣ - مراكز ثقافية أخرى .

وستتكمّل عن كل من هذه بتيء من التفصيل :

١ - المدارس والمعاهد والجامعات (*) :

اهتم المسلمون اهتماماً كبيراً بإنشاء المدارس والمعاهد والجامعات ، ويمكن القول إنه بعد فترة من الزمن ليست طويلة كانت شبكة من المدارس قد تم إنشاؤها ، فأصبح بكل قرية أو مدينة مدرسة ابتدائية أو ثانوية ، يبنى منهاج الدراسة فيها على تعليم القرآن وسيرة الرسول ، والقراءة والكتابة

(*) في كتاب « تاريخ التربية الإسلامية » لاحتريج دراسة واسعة مفصلة لما أوجزه المؤلف هنا عن المدارس والمعاهد والجامعات. راجع الطبعة الثامنة من الباب الأول وبعض مواضع من الأبواب الأخرى .

وتحفيظ بعض الأشعار ومبادئ العلوم والرياضة وقواعد اللغة ، ويقول بروفيسور Ballasteros وبروفيسور Riberra إن مدارس الأطفال كانت كافية تقريباً لجميع الأطفال ، وأما التعليم العالي فقد أعدت له كليات ومعاهد وجامعات ، كما كان يقوم به بعض أعلام العلماء في منازلهم الخاصة ، وكان الحكام والأمراء والوزراء والأغنياء يرون أن عليهم أن يكونوا رعاة العلم ، فكانوا يعقدون في قصورهم ندوات علمية وأدبية ويفتحون المدارس والكليات ويشيدون المعامل وينشئون المستشفيات .

وأول مجمع علمي في الإسلام هو ذلك الذي رعاه المؤمنون في بغداد وأسماء بيت الحكمة (١) وقد سبقت الإشارة إليه ، وأما المعهد العلمي الثاني فمجموعة من الكليات تسمى المدارس النظامية ، وقد أنشئت أولاها ببغداد سنة ١٠٧٦ م وأنشأها الوزير الفارسي نظام الملك الذي كان وزيراً للسلطان السلجوقي ملك شاه ، وكانت المدارس النظامية مدارس داخلية وقد توجهت العناية فيها إلى إحياء الدراسات اللاهوتية ، وهو اتجاه أخذت به الجامعات الأوربية عندما أنشئت بعد هذا التاريخ ، ويرى Reuben Levy (٢) أن ملامح ذات بال يبدو أنها استعيرت من المدارس النظامية إلى الجامعات الأوربية التي ظهرت مبكرة .

وكان الغزالي مدرساً بنظامية بغداد مدة أربع سنوات ، ومن أحداث الصبا التي وقعت بالنظامية آنذاك أن بعض تلاميذها شربوا نقيع نبات خاص

(١) أنظر ما كتبه عن بيت الحكمة في « تاريخ التربية الإسلامية » الطبعة الثامنة ص ١٤٨ وما بعدها .
(المترجم)

ظناً منهم أنه يقوى الفطنة ويجعل الذكاء حاداً ، ولكنهم ما إن شربوا حتى فقلدوا وعيهم ، وإذا بأحدهم يحضر إلى الدرس وهو شبه عار ، فضحك منه زملاؤه في المدرسة ، وسأله الأستاذ عن سبب هذا الفعل الشائن الذي ارتكبه بحضوره إلى الدرس على هذا الوضع ، فأجاب أنه هو وبعض زملائه شربوا هذا النقيع ليقوى ذاكرتهم ولكن زملاءه فقلدوا وعيهم ولم يبق إلا هو متالكاً قواه العقلية !

وبعد حوالى ثلاثة قرون على إنشاء نظامية بغداد أنشئت بالعاصمة جامعة جديدة هي المدرسة المستنصرية (التي أنشأها الخليفة المستنصر العباسي ٦٤٠ هـ) وقد اندمجت المدرسة النظامية في المستنصرية في السنين الأولى لإنشاء المستنصرية (١) ، ومما امتازت به المدرسة المستنصرية أن شيد لها مستشفى على اتصال بها لتعليم الطب .

ومن المدارس العليا الشهيرة ، المدرسة الرشيدية والأمنية والطرخانية والخانونية والشريفية في سوريا ، والناصرية والصلاحية في مصر ، وقد كان طابع المدرسة النظامية هو طابع المدارس التي انتشرت فيما بعد في الإمبراطورية الإسلامية . وصار في بغداد وحدها ثلاثون مدرسة ، وفي دمشق عشرون ، وفي القاهرة ثلاثون ، وفي الموصل ست . ولم تخل مدينة هامة من مدرسة أو أكثر من ذلك الطراز كالإسكندرية ونيسابور وسمرقند وأصفهان ومرو وبلخ وحلب وغزنة ولاهور وغيرها ، وأما في أسبانيا فقد انتشرت معاهد العلم

(١) تدل الدراسات الدقيقة التي قمت بها في العراق بمساعدة بعض الأساتذة هناك على ما يخالف ما ذكره المؤلف هنا عن نهاية المدرسة النظامية (انظر هذا الموضوع في تاريخ التربية الإسلامية ص ٢١٢ وما بعدها) . (المترجم)

انتشاراً كبيراً حتى ليقال إن قرطبة وحدها كان بها عدة مئات من هذه المعاهد ، وفي أكثر دور العلم هذه كانت تدرس الفلسفة والآداب والتاريخ والعلوم بفروعها المختلفة بجانب الدراسات الدينية .

وقد ظهرت في أسبانيا معاهد للدراسات العالية ، كتلك التي يطلق عليها الآن جامعات ، ومن أشهر الجامعات الأسبانية جامعة قرطبة وأشبيلية ومالقة وغرناطة ، وعلى المدخل العام لجامعة غرناطة نقشَت العبارة الآتية : « يقوم استقرار العالم ونظامه على أربعة أسس : علم الحكماء ، وعدل الملوك ، وصلاة العابدين ، وبأس الشجعان » .

وإلى جامعات أسبانيا هذه كان يفد الطلاب الأوروبيون للتعلم والدراسة .

٢ - المكتبات (*) :

خلال العصر العباسي انتشرت صناعة الورق بالبلاد الإسلامية وأصبحت من الصناعات المحلية ، وعلى هذا انتشرت الكتب وأصبح تداولها سهلاً يسيراً ، وكان الوراقون يقومون بنسخ الكتب وبيعها ، واهتم كثيرون بجمع الكتب فنشأ عن ذلك مكتبات عديدة هنا وهناك .

ومن الحق أن نقرر أن صناعة الورق هي من أهم ما منحه الشرق الإسلامي إلى أوروبا عن طريق صقلية وأسبانيا .

ومن المكتبات التي حظيت بشهرة واسعة في العالم الإسلامي في القرن

(*) كتبت عن المكتبات باباً طويلاً بكتابي تاريخ التربية الإسلامية ص ١١٣ -

العاشر الميلادى مكتبة الموصل ، وكان العلماء يلجئون إليها للقراءة والنقل ، وكانوا يحصلون بالمجان على ما يحتاجونه من أوراق وأقلام .

وفى القرن نفسه كان صاحب مكتبة مماثلة بالبصرة لا يكتفى بمدِّ الباحثين بالأوراق والأقلام ، بل كان يقدم منحاً منتظمة للطلاب الذين يدرسون بمكتبته .

وكثير من المكتبات كانت تبيع إعارة الكتب للاطلاع الخارجى مقابل شروط معينة ، وقد مدح ياقوت (١) الرومى المشرفين على المكتبات ببأدء مرو إذ سمحوا له أن يستعير مائتى مجلد دون أن يدفع ضمناً .

وكان فى الأندلس حوالى عشرين مكتبة عامة ، منها مكتبة قرطبة التى حوت وحدها (فى القرن العاشر الميلادى) . . . ٤٠٠ مجلد ، أو ٦٠٠,٠٠٠ مجلد كما ورد فى رواية أخرى ، ويظهر الفرق واضحاً إذا قورن هذا العدد بما تحويه المكتبات المعاصرة فى أوربا إذ كان أقصى ما وجد بأية مكتبة آنذاك هو بضعة آلاف لا تتجاوز العشرة أو لا تصلها ، وقد ذكرت دائرة المعارف الكاثوليكية (Catholic Ency) — ولعل الرقم الذى تورده دقيق — أن مكتبة كنيسة كانتربرى (Canterbury) ، وهى أغنى المكتبات المسيحية المعاصرة كانت تحوى ١٨٠٠ مجلد فى القرن الرابع عشر ، أى بعد بواذر النهضة فى أوربا .

ويروى أن مكتبة دار الحكمة بالقاهرة كانت تحوى مليونين من المجلدات ، وأن مكتبة طرابلس السورية — التى أحرقتها الصليبيون لابان

(١) معجم البلدان ج ٦ : ص ٢٦ .

الحروب الصليبية الأولى - كان بها حوالى ثلاثة ملايين من المجلدات ،
منها ٥٠,٠٠٠ نسخة من القرآن الكريم وتفسيره ، ومعنى هذا أن هذه المكتبة
كان بها ثلاثة أرباع ما تحويه مكتبة بودليان (Bodleian Libraay)
أو تحوى أكثر من نصف ما تحويه جميع مكتبات الهند وباكستان في العهد
الحاضر .

وكانت الكتب فى مكتبة الحاكم بالأندلس مرتبة فى أربعين حجرة ، كل
حجرة كان بها ١٨,٠٠٠ كتاب ، وكانت خزانة الكتب التى أنشأها عضد
الدولة فى شيراز تشغل ٣٦٠ حجرة وفسطاطاً ، تحيط بها الحدائق والمتنزهات

وكانت هناك مكتبات أخرى مماثلة فى البلاد الإسلامية الكثيرة ، مثل
بغداد ، ورام هرمز ، والبصرة ، والرى ، ومرو ، وبلخ ، وبخارى ، وغزنة ،
كما كانت هناك مكتبات كبيرة بالمساجد الشهيرة .

ومما يزيد فى قيمة هذه المكتبات ويضاعف من مقدار ما كان بها من
مجلدات ، أن كتبها كانت كلها مخطوطات . إذ لم تكن الطباعة قد ظهرت
بعد .

وكان خزانة المكتبات دائماً من العلماء الأفذاذ ، ويكفى أن نذكر أن
ابن سينا ، وابن مسكويه ، والشابشتى ، قد شغلوا هذه الوظيفة .

٣ - مراكز ثقافية أخرى :

إلى جانب المدارس والمعاهد والجامعات والمكتبات التى أنشئت
للدراسات والأبحاث العميقة ، نجد أن كثيرين من العلماء كانوا أشبه بمدارس
متنقلة ، فقد كانوا يجلسون فى بيوتهم أو فى المساجد أو فى الأضرحة حيث
يتحلق حولهم الطلاب ، وينالون من معارفهم ، وكان بالمساجد والأضرحة

الشهيرة مساكن خاصة يلجأ إليها الغرباء من الطلاب للإقامة ، وكانت بها
أمكنة أخرى خصصت لتلقى فيها الدروس والمحاضرات .

وكان كثير من المدرسين بالمساجد والأضرحة يتقاضون إعانات مالية
تصرف لهم من أوقاف خصصها أغنياء المسلمين لهذا الغرض (١) . وكان
المدرسون موضع احترام الناس وإجلالهم (٢) ولم تكن المحاضرات في المسجد
مقصورة على الدراسات الدينية بل تعدتها إلى الموضوعات الأخرى ، ولم تكن
هذه المحاضرات كذلك مقصورة على الطلاب الذين يحضرون بانتظام ،
بل كانت مباحة للجميع من يودون الاستماع إليها من الشبان والشيوخ (٣) ،
وقد زار ناصر خسرو مسجد الأزهر في القرن الحادى عشر الميلادى ، وقرر
أن حوالى ٥,٠٠٠ من الأشخاص كانوا يفلدون إلى هذا المسجد يومياً
للاستماع للمحاضرات التى كانت تلقى فى موضوعات مختلفة .

وكان هناك عدد كبير من المراصد ، انتشرت فى أمكنة كثيرة من
الإمبراطورية الإسلامية، وكانت هذه المراصد بمثابة معاهد لتعليم الفلك ،
كما كانت المستشفيات الكثيرة معاهد لتعليم الطب، وبجانب ذلك انتشرت
الأنندية الأدبية ، كما أقام الخلفاء والسلاطين والعظماء ندوات أدبية فى
قصورهم كانت مما سبب رقى العلوم وانتشارها (٤) !

(١) انظر ما كتبه عن « الأوقاف على التعليم » بكتابه تاريخ التربية الإسلامية
ص ٣١٢ وما بعدها .
الترجم

(٢) انظر ما كتبه عن « المستوى الاجتماعى للمدرسين » بكتابه تاريخ التربية
الإسلامية ص ١٧٠ وما بعدها .
الترجم

(٣) انظر ما كتبه عن « حلقة التعليم » بكتابه تاريخ التربية الإسلامية ص ٣٢٠
وما بعدها .
الترجم

(٤) انظر ما كتبه عن « الصالونات الأدبية » بكتابه تاريخ التربية الإسلامية
ص ٥٨ وما بعدها .
الترجم

الباب الرابع

الأفكار العلمية وتطورها

تقديم :

رأينا فيما سبق ما ازدان به العصر الإسلامى الزاهر من علوم ومعارف ، نتجت عن الفكر الإسلامى نفسه ، أو ورثها المسلمون عن الآخرين ، ونريد الآن أن نبين التراث العلمى الذى خلّفته النهضة الإسلامية للعصور التالية ، وبأدى ذى بدء نقرر أن المسلمين تلقوا من الإسكندرية وسوريا وفارس علوماً ذات طابع عتيق لم تتطور منذ كتبها مؤلفوها ، فدرسها المسلمون وهضموها ، وأعادوا كتابتها مع زيادات وشروح . ونقلوها إلى أوروبا فى نوب قشيب ، وفى ضوء منهاج حديث ، كما نقلوا إلى أوروبا علوماً أخرى كانت من مبتكرات المسلمين ووضعهم . فقد كانت الفترة من القرن السابع الميلادى إلى القرن الثانى عشر فترة النهضة الإسلامية ، وكان المسلمون خلالها قادة الفكر فى العالم أجمع ، ومع أن نجاحهم فى الدراسات الفلسفية كان كبيراً إلا أنهم فى الميدان العلمى كانوا أبعد نجاحاً وأعمق انتصاراً ، وفى هذا الباب سنورد لمحة سريعة نبين فيها الغاية الرفيعة التى وصلها المسلمون فى ميدان الأفكار العلمية ، مُرجّئين التطور فى الأفكار الفلسفية إلى الباب الرابع .

الفقه والقانون

لقد برع المسلمون براعة واضحة في الدراسات الفقهية والقانون حتى أصبح الفقه الإسلامى يعالج أدق المشكلات في الحياة الإنسانية ومن أهم اتجاهاته التى امتاز بها على القانون الرومانى أنه يقرر حرية الفرد وحقوق النساء والأطفال ، وأنه قانون عالمى شامل . .

ويقول Edmund Burke « إن القانون الإسلامى يطبق على جميع المسلمين لا فرق بين الملك المتوج أو الخادم الفقير ، وقد حيك القانون الإسلامى أبرع حياكة وأحكمها ، حتى أصبح بحق أعمق وأسطع قانون عرفته البشرية » .

ومن العلوم التى استحدثها المسلمون لاتصالها بالتشريع علم مصطلح الحديث . وبواسطة هذا العلم كانوا يستطيعون أن يثبتوا من صحة نسبة الأحاديث إلى الرسول ، تلك الأحاديث التى شملت أقوال الرسول وأفعاله التشريعية ، فكانت إيضاحاً لكثير من دقائق الحياة ومشكلاتها ، ومن أعظم من برعوا في جمع الأحاديث وفي علم مصطلح الحديث الإمام البخارى الذى أمضى ستة عشر عاماً يطوف الأقطار الإسلامية ليقابل العلماء ويدون عنهم ما حفظوه من الأحاديث ، وقد قابل في هذا التطواف حوالى ألف فقيه ودون عنهم حوالى ٦٠٠,٠٠٠ حديث ، ثم أعمل البخارى مقاييس النقد « علم مصطلح الحديث » فلم يثبت له من هذا العدد إلا ٧٢٧٥ حديثاً .

ومن أسس التشريع في القانون الإسلامى « الإجماع » ، ومعنى ذلك أنه إن لم يرد نص في القرآن أو الحديث الصحيح ليجيب عن سؤال ما يعترض المسلمين ، فإن الإجابة تُترك لما يراه ذوو الرأى من العلماء ، وهذا المبدأ هام جداً لأنه ضمن التطور في القانون الإسلامى ليلائم كل زمان ومكان .

التاريخ وعلم الاجتماع

أفاد المسلمون في دراستهم للتاريخ ، من علم مصطلح الحديث ، ذلك لأن علم مصطلح الحديث دربهم على أساليب النقد ومعرفة الصحيح من الزائف ، وكان لهذه الدربة أثر كبير في نقد الروايات التاريخية ومعرفة ما يوثق به منها حتى ليقال إنه لم يجرء بعد هيرودوت من يضارع المؤرخين المسلمين في دقهم وعظمتهم ، وكثير من المؤرخين المسلمين احتملوا عناء الرحلات الطويلة لجمع المادة التاريخية أو لتحقيقها ، ومن الرحالة المسلمين ابن بطوطة (١٣٧٧ م) الذي طاف أغلب بقاع الأرض وبخاصة بلاد الهند ، وابن بطوطة نفسه ليس مؤرخاً ، ولكنه كتب سجلاً كاملاً حافلاً بما رآه وما سمعه وما واجهه ، فكان ذلك السجل خير معين يلجأ إليه الباحثون في تاريخ الهند في العصور الوسطى .

ومن المؤرخين المسلمين في العصور المبكرة الطبرى (٩٢٣ م) ، وقد رحل هذا المؤرخ من فارس إلى العراق والشام ومصر ، واضطر في بعض الأحوال أن يبيع من ملابسه ما يشتري بثمنه قوتاً يقتات به ، وقد وصل لنا تاريخ الطبرى ولكنه غير كامل ، وقد حوى تاريخ الشرق قبل الإسلام وبعده حتى سنة ٩١٥ م ويقع هذا التاريخ في ٢٥٠١ من الصفحات ، ويقال إن هذا القدر الذى وصل لنا عشر ما كتبه الطبرى ، وما يروى عن هذا العالم أن متوسط ما كان يكتبه في اليوم أربعون صفحة ، وأنه ظل على هذه الحالة مدة أربعين عاماً (١) .

(١) ياقوت : معجم الأدباء ج ٦ ص ٦٢٤ .

ومن المؤرخين المسلمين أيضاً المسعودى (٩٥٦ م) ويلقب « هيرودوت العرب » وقد زار المسعودى جميع أقطار آسيا تقريباً ، بما في ذلك الصين ومدغشقر ، وقد خلف لنا عملاً علمياً ضخماً يقع في ثلاثين مجلد كتبه عن تاريخ العالم من قبل الإسلام حتى سنة ٩٤٧ م وينظر المحدثون من المؤرخين في الشرق والغرب إلى ما دونه هؤلاء المؤرخون الأول نظرة الائق . ويرون أن عملهم كان محكماً ودقيقاً .

ومن المؤرخين المسلمين أيضاً ابن حيان (١٠٧٦ م) الذى كتب خمسين كتاباً أحدها عن تاريخ آسيا وعنوانه « المتين » ويقع في ستين مجلداً .

وقد دون أبو الفرج الأصفهاني (٩٦٧ م) الأغاني العربية ، وترجم مؤلفيها وللمغنيين لها ، في كتاب ضخيم يقع في واحد وعشرين مجلداً .

ووضع « البيروني » لأول مرة قواعد دقيقة لاختيار المادة التاريخية ونقدها ، وشرح الطريقة التى يستطيع الإنسان بها أن يقرر أن مادة تاريخية معينة صالحة ، أو موضوعة ، أو مبالغ فيها .

والمؤرخ الأندلسي ابن الخطيب (١٣٧٦ م) ألف ستين مؤلفاً في موضوعات مختلفة ، وأشهر هذه المؤلفات « الإحاطة في أخبار غرناطة » .

وقد دون المسلمون أيضاً تاريخ الفلسفة ، ومن كتبوا في ذلك حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون .

وكتب التراجم التى دونها المسلمون ، تعتبر بحق أبرع وأعظم ما خلفوه من التراث العلمى ، ومن أهم مؤلفي كتب التراجم ابن عساكر (١١٧٧ م) الذى كتب كتاباً ضخماً يقع في ثمانين مجلداً لمشاهير الإعلام بدمشق ، ومن

برعوا في هذا الميدان أيضاً ابن خلكان الذي كتب تراجم أعلام المسلمين حتى منتصف القرن السابع الهجري ، ويعتبره نيكلسون أحسن ما دون في موضوع التراجم على الإطلاق .

ومن بين الذين لمعوا في حقل الدراسات التاريخية ابن خلدون (١٤٠٦ م) وقد نال بعمله الضخم في ميدان التاريخ شهرة رفيعة بين المؤرخين ، ولم يكتب ابن خلدون التاريخ فحسب ، بل فتح في نفس الوقت آفاقاً جديدة لموضوعات هامة ، وكتب فيها كتابة العارف الواصل ، ومن هذه الموضوعات النظريات السياسية ، وتاريخ الفلسفة ، وعلم الاجتماع ، ويقارن Colosio (١) بين ابن خلدون وبين Machiavelli في نظريتهما ، تجاه تدوين التاريخ السياسي والعلوم السياسية ، فيقول :

« إذا استطاع ابن فلورانس العظيم أن يشرح لنا فن الحكم والسلطان فإنه يكتب من وجهة نظر سياسي بعيد النظر ، ولكن العالم التونسي ابن خلدون استطاع أن ينفذ إلى الظواهر الاجتماعية ويكتب عن الموضوع كإقتصادي ضليع ، وفيلسوف عميق ، وهذه حقيقة تدعونا أن نرى فيما كتبه ابن خلدون معارف واتجاهات كانت مجهولة تماماً حتى ذلك التاريخ » ومقدمة ابن خلدون هي التي خلّمت له هذه الشهرة الذائعة والمكان الرفيع ، وقد سبق سواء فيها بأن أبرز لأول مرة نظرية التطور التاريخي التي تأخذ بعين الاعتبار أثر العوامل الطبيعية كالمناخ والبيئة الجغرافية ، والعوامل غير الطبيعية كالدوافع الخلقية والروحية .

(١) انظر Introduction a l'étude d'Ibn Khaldoun

ومن ناحية كشف قوانين التطور الطبيعي والتدهور الطبيعي يعتبر ابن خلدون أول رائد ناجح في هذا المضمار ، وقد كشف عن طبيعة التاريخ والفرض الحقيقي من دراسته ، وهو بهذا يعتبر المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع ، والحق يقال إنه ليس بين الكتاب العرب أو الأوربيين من يضارع ابن خلدون في نظره إلى التاريخ نظرة شاملة فلسفية ، وقد أجمع النقاد على أن ابن خلدون أعظم مؤرخ فيلسوف ظهر في الإسلام (١) ، وهو من أعظم المؤرخين الفلاسفة في كل زمان ومكان ، وليس هذا فحسب بل إن ابن خلدون يعتبر المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع ، وابن خلدون أيضاً باحث علم الاقتصاد السياسي يقول Colasio إن ابن خلدون كان رجل اقتصاد ذا عقلية مبدعة مبتكرة ، وقد كشف أسس الاقتصاد السياسي وطبقها بذكاء ومهارة قبل أن يعرفها العلماء الأوربيون بزمان طويل ، وإذا كانت نظريات ابن خلدون الاجتماعية قد وضعت في المقدمة بين فلاسفة المؤرخين وعلماء الاجتماع فإن فهمه لدور العمال والأجنود ورأس المال وما دونه عن ذلك لجدير أن يضعه في المقدمة بين أساتذة الاقتصاد الحديث .

الجغرافيا

وفي ميدان الدراسات الجغرافية برز المسلمون بروراً واضحاً ، ففي النصف الأول من القرن التاسع الميلادي إبان حكم المأمون رسم الخوارزمي وأعوانه — وكانوا تسعة وتسعين — خريطة للسماء والأرض ، كما قام هؤلاء بمحاولة ناجحة لقياس محيط الأرض على أنها كرة ، وقد أجريت هذه المحاولة على سهل سنجار (سهل إلى الشمال من الفرات) وكذلك على مقربة من مدينة تدمر ، وكانت نتيجة هذه المحاولة أن توصل هؤلاء إلى أن طول الدرجة الزوالية ٥٦ ميلاً وتلك نتيجة رائعة ، إذ لم ترد عن الطول الحقيقي لهذه الدرجة الذي حدد فيما بعد إلا بمقدار ٩٥٩ ياردة ، وتوصل هؤلاء — بعد معرفة طول الدرجة الزوالية — إلى أن محيط الأرض يبلغ ٢٠,٠٠٠ ميلاً ، وأن نصف قطرها ٦٥٠٠ ميلاً وقد ظهرت هذه النتائج في الشرق حينما كان الأوروبيون يعتقدون أن الأرض مسطحة .

وفي منتصف القرن التاسع قام المقدسي برحلات طويلة استغرقت عشرين عاماً زار خلالها أماكن مختلفة من العالم ، ثم دون ما يمكن أن يسمى دائرة معارف في الجغرافية ، وصف فيها بدقة هذه الأماكن التي زارها ، وفي أواخر القرن التاسع ثم في أوائل العاشر دخل إلى اللغة العربية ترجمتان كاملتان مستقتلتان لجغرافية بطليموس ، وقد قام بهذه الترجمة عالمان كبيران أحدهما بعد الآخر ، وتلا ذلك أن ظهر باللغة العربية عدد من الدراسات الجغرافية الممتازة اتجهت مع — دراسة الجغرافيا — عدة اتجاهات ، فمنها ما اهتم مع الجغرافيا بالتاريخ أو بعلم تخطيط البلدان ، ومنها ما اتجه إلى ما نسميه الآن الجغرافيا الاقتصادية ، أو إلى ما نسميه الجغرافيا السياسية ، ومنها ما فصل

القول عن نظام البريد في عهد الخلافة ، ونظام الضرائب في كل مقاطعة ، كما أن من هذه الدراسات ما اهتم بالمناخ والمناجم والمعادن .

وفي منتصف القرن العاشر نشر الأصبطخري مؤلفه عن جغرافية البلاد الإسلامية ، وألحق بهذا المؤلف خرائط ملونة لكل قطر من الأقطار الإسلامية .

وفي مطلع القرن الحادى عشر نشر البيروني كتابه عن جغرافية روسيا وشمال أوربا ، وفي هذا القرن نفسه استطاع الزرقالى « أبو إسحاق إبراهيم ابن يحيى » أن يقرر أن طول البحر الأبيض المتوسط هو ٤٢ درجة وهو تقدير قريب جداً من الحقيقة .

وفي منتصف القرن الثانى عشر صنع الإدريسي — أعظم الجغرافيين ورسامى الخرائط في العصور الوسطى — كرة سماوية وخريطة للعالم على شكل قرص وكلاهما من الفضة وقدمهما إلى روجر الثانى « Roger II »

ملك صقلية ، ومن أبرع ما وصل إليه الإدريسي أنه رسم خريطة لنهر النيل أبرز عليها منابع النيل الأصلية التى اكتشفها الأوربيون في القرن التاسع عشر .

وفي سنة ١٢٩٠ صنع قطب الدين الجغرافى خريطة للبحر الأبيض المتوسط وقدمها إلى ملك إيران . ولكن أعظم الجغرافيين العرب على الإطلاق هو ياقوت (١١٧٩—١٢٢٩) الذى استطاع في مطلع القرن الثالث عشر أن يخرج دائرة معارف جغرافية ضخمة في ستة مجلدات كبيرة بعنوان : « معجم البلدان » . ويقولون عنه إنه منجم غنى بالمعرفة وليس له نظير في

سائر اللغات ، ووضع أبو الفدا أمير حماه كتاب تقويم البلدان الذى ترجم إلى اللاتينية فى القرن الثامن عشر ، وكان مرجع كثير من علماء الغرب .

وبالإضافة إلى ما أضافه العرب من معلومات جغرافية لا تزال معينة للباحثين والدارسين ، فقد كان المسلمون معبراً انتقلت بواسطته إلى أوروبا أفكار اليونان الجغرافية والفكرة الهندية عن صورة الأرض . وعقيدة استدارة الكرة الأرضية ، والنظرية الصائبة عن أسباب المد والجزر .

ومما يدل على براعة العرب فى الجغرافيا ما نشرته مجلة (نيوزويك) الصادرة فى العاشر من شهر إبريل سنة ١٩٦١ أن الدكتور (هوى - لن - لى) الأستاذ بجامعة بنسلفانيا أورد بعض الدلائل على أن العرب اكتشفوا القارة الأمريكية قبل (كريستوف كولومبس) بأربعة قرون .

علم الفلك

وصلنا الآن إلى العلوم التي يمكن بحق أن نقول عنها إن المسلمين قد وضعوا أسسها فمكّن ذلك للأوربيين من أن يشيّدوا على هذه الأسس الدراسات الأوربية الحديثة ، تلك العلوم هي الرياضة والطب والعلوم الطبيعية .

الفزاري :

وقد ذكرنا فيما سبق (عند الكلام عن الجغرافية) أن الفلكيين الذين كانوا يعملون في كنف المأمون وبتشجيعه قاموا بمحاولة ناجحة لقياس محيط الأرض على أنها كرة وفي سنة ٧٧٣ م قدم رحالة هندي إلى العالم الإسلامي كتاباً اسمه « Sidhanta » وهو عبارة عن الجداول الفلكية الهندية ، وقد أمر الخليفة المنصور أن يترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية ، فقام بترجمته العلامة الفزاري (المتوفى بين ٧٩٦ — ٨٠٦) وقد أصبح الفزاري بذلك أول فلكي في الإسلام .

الخوارزمي :

وبعد الفزاري جاء الخوارزمي (٨٥٠ م) الذي أصبح رئيساً لعلماء الفلك في بلاط المأمون ، وقد رسم الخوارزمي جداول فلكية خاصة به ، وانتفع فيها بما قدمه الفزاري من جهد في هذه المادة ، وقد قام الخوارزمي أيضاً بدراسة النظام الفلكي الهندي واليوناني وأصاف إلى هذه الدراسة النتائج الرائعة التي وصل إليها بنفسه .

وبجانب المرصد الذى أقامه المأمون ورعاه ، كان هناك ثلاثة مراصد ببغداد ، ومراصد أخرى بمصر والرى وشيراز ونيسابور وسمرقند وجنديشابور ودلهى وإشبيلية وواسط وغيرها، وقد وصل أبو جعفر الخازن فى أبحاثه إلى تحقيق انحراف دائرة البروج، وحل مسألة عويصة حول هذا البحث كان قد تعرض لها أرشميدس دون نتيجة حاسمة . ويقول Draber عن مرصد إشبيلية إن هذا المرصد قد آل أمره بعد نهاية عهد المسلمين إلى أن أصبح مكاناً لناقوس إحدى الكنائس ، إذ لم يستطع المسيحيون الأسبان أن يعرفوا له وظيفة أخرى .

وقد استطاع الخوارزمى (المتوفى سنة ٨٣٥ أو ٨٤٥) أن يضع جدولاً فلكياً دقيقاً ، وسار على نهجه فى هذا المضمار العلماء الفلكيون حبش بن حاسب ويحيى بن أبى منصور الذى عاش فى الفترة بين ٨٧٠ و ٩٧٠ والتبريزى (٩٢٢) والمجريطى (٩٥٠ — ١٠٠٧) والزرقالى المعروف فى الغرب باسم Arzachel (١٠٨٧) وناصر الدين الطوسى المتوفى سنة ١٢٧٤ م .

الزرقالى :

ومن مبتكرات الزرقالى أنه قدر فترة خسوف الشمس وحدد مدتها ، وابتكر إسطولاً حديثاً حدد به البعد بين المجموعة الشمسية والنجوم وكذلك البعد بين الأرض والقمر ، ومما يذكر أن الأبحاث الحديثة بينت أن الفرق ضئيل جداً بين ما وصل إليه الزرقالى وبين ما وصل له العلم الحديث .

ومما وصل إليه أبناء موسى بن شاكر أن أكدوا ميل المحور الذى تدور حوله الأرض ، وبالتالي مقدار بعدها وقربها من الشمس ولم تكن كل هذه معروفة لدى اليونان .

الكوهي ونقطة الانقلاب الشمسي :

وسار الكوهي على هذا الأساس فوصل إلى تحديد نقطة الانقلاب الشمسي عند قمة الصيف وقمة الشتاء ، حيث الاتجاه نحو الخريف بعد الصيف ، أو نحو الربيع بعد الشتاء .

أبو معشر وقوانين الجزر والمذ :

وقدم أبو معشر لأوروبا لأول مرة قوانين الجزر والمذ، وصلتها بحركة القمر .

ابن جابر البتاني :

ومن عباقرة الفلكيين ابن جابر البتاني (٩٢٩ م) ويعترف البحاثة الغربيون بأنه أصلح كثيراً من أبحاث بطليموس الفلكية (١) ، وأنه حقق حساب الأفلاك التي يدور فيها القمر وبعض النجوم ، والتي أثبتت إمكان كسوف الشمس كسوفاً تاماً ، وحقق بدقة واضحة مقدار الانحراف في دائرة البروج ، وحدد طول السنة في الأقاليم الاستوائية وطول الفصول الأربعة وغير ذلك من ألوان التفوق الفلكي .

علي بن يونس وعمر الخيام :

ومن الفلكيين الذين نغوا ببلاط الفاطميين علي بن يونس (١٠٠٩) وقد ألّف للحاكم كتاباً مشهوراً عنوانه « الزيج الأكبر الحاكمي » وبحث فيه مسائل أظهر فيها تفوقاً عن بطليموس ، وقد كان النفع

(١) كان بطليموس يرى أن الأرض ثابتة ، وأنها مركز النظام الشمسي ، ولم يقبل العرب هذا الوهم وشاروا خطوات واسعة نحو إثبات أن الشمس ثابتة ، وأن الأرض تدور حولها وتدور حول نفسها في نفس الوقت .

بهذا الكتاب عظيماً وشاملاً فنقاه إلى الفارسية عمر الخيام ونقاه
co - cheon - King إلى الصينية ، واشتد النفع به في بلاط المغول عن
طريق عبد الملك ناصر الدين الطوسي ، وأثبت سند بن علي ويحيى بن أبي
منصور ملاحظات عظيمة الأهمية حول الاعتدال الشمسي ، والنجوم ذوات
الأذنان ، وقياس الضوء ، وغيرها من الظواهر الفلكية وقد استعرض
البيروني (١٠٤٨) الذي مر ذكره نظرية بالغة الأهمية آنذاك هي نظرية
دوران الأرض حول محورها ، كما وضع حدوداً واضحة لخطوط الطول
والعرض ، ووضع عمر الخيام تقويماً أدق من التقويم الجورجاني
(the Georgian Calender) المشهور ، فقد اتضح أن تقويم عمر الخيام يفترق
عن الأبحاث الحديثة بيوم كل ٥٠٠ سنة في حين كان الفرق في التقويم الجورجاني
يوماً كل ٣٣٣٠ سنة ، ومع أن عمر الخيام اشتهر بدراسة الهندسة والحساب ،
فقد كتب بحثاً مستفيضاً في الفلك .

من الفكر الإسلامي للفكر الغربي في الفلك :

هناك مؤلفات أربعة لأبي معشر ، وكذلك الجداول الفلكي الذي صنعه
الخوارزمي ، وقد ترجمها كلها للغة اللاتينية يوحنا الأشبيلي John of seville
وأدلارد البائي (Adlard of Bath) ، أما الجداول الفلكي الذي صنعه
البتاني فقد ترجمه إلى اللاتينية (Plato of Trivoli) ثم أعاد ترجمته بعد
ذلك ألفونسو العاشر (Alfonso X) وترجم جبالد الكرموني كتاب الهيئة
لابن جابر وقد نشرت هذه الترجمة سنة ١٥٣٢ وقد سجل هذا الكتاب تقدماً
واضحاً وأدخل تحسينات كبيرة على أبحاث بطليموس ، وقد ترجمت إلى
اللاتينية أبحاث أخرى كثيرة في الفلك كتبها انبعاث المسلمون أمثال أبي بكر
والقاضي والبتاني والفرغاني وغيرهم . وقد كان لهذه الأبحاث أثر واضح في

تقدم هذا العلم بأوروبا، فمن المسلم به أن الجداول الفلكية التي وضعها (Alphonsine) وأكملها Alphonso العاشر لم تكن إلا تجديداً للفكر الإسلامي في علم الفلك. ومثل ذلك يقال عن جداول Toledan التي اتخذت أساساً لها ما كتبه المسلمون وخاصة ما كتبه الزرقالي، وكذلك مؤلفات Ramond of Morselles التي كانت في الحقيقة اقتباساً من جداول الزرقالي، وقد حلت الجداول الفلكية التي صنعها المسلمون محل جداول اليونان والهنود واغنت عنها، وقد شاع استعمالها حتى وصلت الصين، وانتفع Copernicus بثقافة الفلكيين المسلمين بدليل أنه أورد في كتابه De Revolution orbium Coelestium اقتباسات من الزرقالي والبتاني، وبجانب هذا نجد اللغات الأوربية تستعمل بعض الألفاظ الفلكية العربية مثل Al-sumut المأخوذة من السموات و Nadir المأخوذة من كلمة ناظر مما يؤكد أن تراثاً إسلامياً من علم الفلك ضخماً تسرب إلى أوروبا المسيحية .

علوم الرياضة

الأرقام العربية والخوارزمي :

وفد على الخليفة المنصور العباسي عالم هندي يحمل رسالة في الرياضيات كانت - فيما يقال - حجر الأساس في الأبحاث الرياضية التي قام بها العرب ، وقد ترجم ابن الفزاري هذه الرسالة إلى اللغة العربية ، وعرف العرب عن طريقها استعمال الصفر كما عرفوا الأرقام الهندية . ومن أجل هذا أطلق على هذه الأرقام « الأرقام الهندية » وقد نقلت هذه الأرقام فيما بعد من اللغة العربية إلى أوربا ، ولهذا أطلق عليها الغربيون « الأرقام العربية » لعدم صلتهم بالأصل الذي أخذت عنه ، وقد ينسب الغربيون هذه الأرقام للخوارزمي العالم المسلم الرياضي لأنه أول من ألفت رسالة عربية في علمي الحساب والجبر واستعمل فيها هذه الأرقام ، وعن طريق هذه الرسالة وصلت الثقافة الرياضية إلى الغرب فرأى الأوروبيون الأرقام لأول مرة ، وأطلقوا عليها اسم الخوارزمي Al gorisms نسبة إلى مؤلف الرسالة ، وتعد رسالة الخوارزمي سالفه الذكر أساساً لعلم الحساب كما نعرفه الآن .

وجاء بعد الخوارزمي أحمد النساي (١٠٤٠ م) وينسب إليه توضيح قسمة الكسور ، واستخراج الجذور المربعة والمكعبة على طريقة قريبة جداً من الطريقة الحديثة .

وطور مسلمو أسبانيا الأرقام المعروفة بالأرقام الغبارية Chubar numerals واشتق اسمها Chubar من كلمة (الغبار) العربية وهي تختلف اختلافاً طفيفاً عن الأرقام الهندية ، والأرقام الأوربية المستعملة الآن أقرب

شبهاً بأرقام الغبار منها بالأرقام الهندية (١) .

واستعار الغرب من العرب كلمة Cifher أو Zero عندما استعاروا الصفر نفسه من العرب مع باقى الأرقام الهندية ، ومن الواضح أن استعمال الصفر كانت له أهمية عظيمة فى المسائل الحسابية .

ونعود للخوارزمى لنقرر أنه مؤسس علم الجبر ، وأن كتابه المسمى « حساب الجبر والمقابلة » أقدم كتاب فى موضوعه ، وقد ترجمه إلى اللاتينية جوالد الكرمونى Gerald of Cremona فقدّم به إلى أوروبا علم الجبر مرتبطاً بكلمة « الجبر » وهى الاسم العربى لهذا العلم ، ولا يزال هذا الاسم مستعملاً فى اللغات الأوروبية ، وقد ظل هذا الكتاب مرجعاً لهذه الدراسات بالجامعات الأوروبية حتى القرن السادس عشر ، ومما ينسب للخوارزمى أنه اقترح الجيوب (sines) فأحلها محل أوتار القوس المنسوبة إلى بطليموس (Chords) فى حساب المثلثات ، كما اخترع طريقة لحساب الدوائر والمعادلات من الدرجة الثانية ، وقد أسس عليها ابن الفزارى ما وصل له من تقدم فى حساب المكعبات .

عمر الخيام :

وتقدم عمر الخيام بالرياضيات خطوات أخرى إلى الأمام ، وله فيها

(١) يقول الأستاذ عبد الهادى التازى سفير المغرب بالعراق فى حديث له نشر بمجلة دعوة الحق (عدد نوفمبر ١٩٧١) : إن الأرقام الهندية (التى نستعملها فى مصر والعراق) والأرقام الغبارية (التى تستعملها المغرب وأوروبا) كلاهما انحدر من الهند ، ولكن ملامح الفكر العربى تظهر فى الغارية أكثر مما تظهر فى الهند ، وقد استوردت أوروبا هذه الأرقام من المغرب العربى ، وكذلك فهو يرى تشجيع استعمال هذه الأرقام الغبارية فى كل البلاد العربية .

كتاب نشر حديثاً بأمريكا (سنة ١٩٣٢ م) وفيه تطوير للطرق المتبعة في حساب المثلثات والمعادلات الجبرية من الدرجة الثالثة والرابعة بواسطة قطع المخروط ، وهو أرقى ما وصل إليه العرب في الجبر (١) .

ثابت بن قرة :

ومن حقق تقدماً ونجاحاً في هذه الدراسات أيضاً أبو بكر محمد (١٠٢٩ م) . أما ثابت بن قرة (٩٠١ م) فقد حقق ما استحق أن يكسب له شهرة واسعة ومجداً كبيراً ، وهو فلكنى كان يعيش في بلاط المعتضد ، وهو الذى قدم للزوايا دراسة هامة ، واستعمل علم الجبر في حل التمرينات الهندسية ، ووضع بذلك الأساس لعلم الهندسة التحليلية ، ولعلم الميكانيكا والفلك (٢) .

ومما ينسب إلى أبي جعفر الخازن أنه حقق انحراف دائرة البروج وحل مسألة عويصة عرض لها أرشميدس تؤدي إلى معادلة مكعبة .

وكما أسس العرب علمي الجبر والهندسة التحليلية فلهم وضعوا الأساس كذلك لعلم حساب المثلثات ، وفي قمة من نبغوا في هذا العلم البتاني (٩٣٠ م) الذى اكتشف غالبية النسب المثلثية الأساسية كما نستخدمها في وقتنا الحاضر وهو أول من حسب قيمة الزاوية ω من المعادلة (٣) .

(١) بل هو أرقى ما وصل إليه علماء الرياضة في حل المعادلات في الوقت الحاضر (انظر عبقرية العرب لعمر فروخ ص ٤٨) .

(٢) مما ينسب إلى ثابت بن قرة أنه حسب طول السنة فكان ٣٦٥ يوماً وست ساعات تسع دقائق وعشر ثوان ، فكان ما وصل إليه يزيد على طول السنة الحقيقي بأقل من نصف ثانية .

(٣) قام بترجمة هذه النظريات الرياضية بعض الزملاء المتخصصين في الرياضة فلهم الشكر .

$$\text{جا ه} = \frac{\text{ظ ا ه}}{\text{جتا ه}}$$

وهو الذى كون المعادلة :

$$\text{جتا ا} = \text{جتا ب جتا ج} + \text{جا ج جتا ا} \text{ للمثلث الكرى .}$$

ولقد كان أبو الوفا أول من عمم نظرية الجيب في علاقتها بالمثلثات الكرية ، كما كان أول من أوجد فكرة الظل ، وظل التمام ، والقاطع . وقاطع التمام في علم حساب المثلثات ، وأوضح العلاقة في النسب المثلثية الستة .

وكتب البغدادى كتاباً عن المثلثات الكرية ، وناقش الخوياندی (١٠٠٠ م) كذلك النظريات الخمس الخاصة بالمثلث الدائرى ، وطور ابن يونس (١٠٠٨ م) خطوات أخرى بالدراسات الخاصة بالمثلث الدائرى وقدم قانوناً أدق لحساب الزوايا .

وكتب جابر بن أفلح (١١٥٠) في أسبانيا مؤلفاً في الفلك في تسعة مجلدات ، عنوان « إصلاح المجسطى » وقد عده الباحثون تطوراً لكتاب المحيط لبطليموس ، وكان أول من قدم النظرية التالية :

$$\text{جتا ب} = \text{جتا ب جا ا} \text{ و جتا ج} = \text{جتا ب جتا ا} \text{ في مثلث فيه زاوية ج قائمة .}$$

وقد نسب بعض الباحثين خطأ نسبة علم الجبر إلى جابر هذا ، والحقيقة أن التسمية أخذت من كتاب الخوارزمى سالف الذكر المسمى « حساب الجبر والمقابلة » الذى ألفه الخوارزمى قبل جابر بأكثر من قرنين .

من الفكر الإسلامى للفكر الغربى فى الرياضة :

وقد وفد إلى معاهد المسلمين بأسبانيا كثير من التلاميذ الذين أصبحوا فيما بعد أساتذة وقادة فى الدراسات الرياضية والطبية ، ومن بين هؤلاء أدلارد البائى Adelard of Bath وهورلى النورفلكى Morley of Norfolk البريطانيين . وكان هؤلاء يعودون إلى بلادهم ليعلموا أقوامهم ما تلقوه من أساتذتهم المسلمين ، كما كانوا يترجمون أهم ما كتبه الباحثون المسلمون ، فقد ترجم أدلارد سالف الذكر كتاب الخوارزمى عن النظرية الهندية فى الحساب والإسضاء ، وقد حملت هذه الترجمة للغرب — بجانب هذه النظرية — الأرقام التى سميت فى الغرب بالأرقام العربية ، أما الأرقام الغبارية فقد نقلت إلى الغرب بواسطة جربيرت (Gerbert) الذى تلقى ثقافته فى أسبانيا أيضاً قبل أن يحتل منصب البابوية باسم سلفر ستر الثانى silverster II (٩٩٩ - ١٠١٣ م) ولم تستعمل هذه الأرقام فى الغرب قبل منتصف القرن الثالث عشر ، وكان استعمالها على يد لونرودو فيبانوسى Leonardo febanoce وقد تلقى هذا دراسته أيضاً على يد مدرس مسلم ، ومؤلفات لونرودو كانت حجر الأساس فى الرياضة عند الأوروبيين ، وقد حوت هذه المؤلفات النسب المثلثية الستة التى وضعها الرياضيون المسلمون ، ومثل هذا يقال عن مؤلفات Jacob of florance التى كان واضحاً أنها كررت ما قدمه العرب من دراسات فى الرياضيات . أما المؤلفات التى كتبها Goerg Purbach أستاذ الرياضيات فى فيينا فى القرن الخامس عشر فقد اعتمدت أكثر الاعتماد على أبحاث الزرقالى ، ولجورج هذا تلميذ اسمه Johannes Muler أصبح فيما بعد أستاذاً فى Padus واه بحث فى الرياضيات نشر أكثر من مرة خلال القرن السادس عشر ، ويعتبر أول بحث كامل فى حساب المثلثات كتبه أوربى ، وقد كان هذا البحث بكل تأكيد أقل مستوى من الأبحاث التى كتبها العرب .

الموسيقى

يرتبط تقدم المسلمين في الموسيقى بما أحرزوه من تقدم في الرياضيات ، فقد عرف المسلمون السلم الموسيقي ، وقياس الوتر ، والإيقاع الدقيق ، قبل أن يعرفها الأوروبيون بعدة قرون ، ومنابع الموسيقى الإسلامية ترجع إلى الموسيقى البيزنطية والفارسية بالإضافة إلى الموسيقى العربية التي عرفها العرب قبل الإسلام ، ويرجع الفضل في خلق هذا المزيج إلى سعيد بن مسجح (٦٨٣ م) الذي درس هذه الفنون الموسيقية ومزجها مكوناً أول لبنة في صرح الموسيقى الإسلامية ، وسار تلميذه ابن محرز (٧١٥ م) خطوات أخرى إلى الإمام في هذا السبيل ، ثم جاء يونس الكاتب (حوالي سنة ٧٤٢) وهو موسيقي من حاشية الوليد الثاني فكتب أقدم كتب عربية في الموسيقى ، ومن بينها كتاب عنوانه : « كتاب القيان » .

وفي فترة الترجمة الشاملة إبان عهد الرشيد والمأمون ، نقل إلى العربية كثير من المؤلفات اليونانية . وجاءت بعد ذلك فترة المؤلفات العربية في الموسيقى ، فكتب إسحق الموصلي الذي أزدان به بلاط الرشيد عدة كتب في الموسيقى ، وألف الكندي (٨٧٣ م) الفيلسوف المشهور الذي سنتحدث عن فلسفته فيما بعد ، سبعة مؤلفات في الموسيقى عرض فيها قوانين الموسيقى الإيقاعية عرضاً شاملاً ، ويروى الكتاب الغربيون أن أحد هذه المؤلفات نال أعظم تقدير في أوروبا ، وحوث رسالة الخوارزمي عن الرياضيات فصلاً ضافياً عن الموسيقى ، وقد ترجمت هذه الرسالة إلى اللاتينية بعنوان *Laber Ysagogsrum Alchorismi* وقام بترجمتها ادلارد الباى الذي ذكره .

وألف ابن عبيد الريحى (٩٤٠ م) كتاباً ترجم فيه لمشاهير الموسيقيين ، على أن أبا الفرج الأصفهاني (٩٦٧ م) بلغ في هذا غاية المدى في كتابه الأغاني الذى تحدث فيه بإفاضة عن الأغاني ومؤلفيها والمغنيين والمغنيات الذين قاموا بأدائها .

إخوان الصفا والفارابى :

وأسهم إخوان الصفا فى خدمة الموسيقى بنصيب كبير ، ولكن أرق الدراسات للموسيقى النظرية قدمها الفارابى الفيلسوف دائع الصيت (٩٥٠ م) فقد دوّن شروحاً عظيمة الفائدة على ما كتبه اليونان فى هذا الفن ، ثم بوج أعماله عن الموسيقى بأن خصص لأبحاثها ثلاثة كتب من مؤلفاته الضافية ، هذا بالإضافة إلى تناوله الحديث عن الموسيقى فى بعض فصول كتبه الأخرى وبخاصة كتابه « إحصاء العلوم » الذى ترجم إلى اللاتينية فى عهد مبكر وكان له فى الغرب نفوذ كبير .

وقد ترجم أيضاً إلى اللاتينية ما كتبه عن الموسيقى الفيلسوفان الشهيران ابن سينا (١٠٢٧ م) وابن رشد (١١٩٨ م) وكانت كتبهما كتباً تعليمية ذاتة الإستعمال فى كل مدارس أوروبا .

وأسهم فى خدمة الموسيقى أكثر الفلاسفة كالفزالى (١١١١ م) وابن باجة (١١٣٨ م) . وناصر الدين الطوسى (١٣١٠ م) وجلال الدين الدوانى (١٥٠١ م) ولم يقتصر الأمر على الفلاسفة بل إن كثيرين غيرهم قدموا دراسات مفيدة عن الموسيقى نذكر منهم المجرى (١٠٠٧ م) والكرمانى (١٠٦٦ م) والحداد (١١٦٥ م) وشمس الدين محمد (١٣١٠ م) وعبد القادر عيسى (١٤٣٥ م) ومحمد بن مراد (١٣٨١ م) .

(م ٦ - الفكر الإسلامى)

من الفكر العربي للفكر الغربي في الموسيقى :

وعند نهاية القرن الثاني عشر كانت أهم المؤلفات العربية في الموسيقى قد تمت ترجمتها إلى اللغة اللاتينية ، وقد تمت هذه الترجمة في مدينة تليدو Toledo ، ولا تزال آثار هذه الترجمات ظاهرة في الموسيقى الغربية حتى العهد الحاضر إذ يتجلى فيها ما نقله Franco of Copogna (١١٩٠ م) وهو - إلى حد كبير - يتبع الكندي في أبحاثه واتجاهاته الموسيقية ، وبعد فرانكو هذا ظهرت رسالة بعنوان Ochetus وهي تنسب إلى John o garland وموضوعها دراسة الأنغام ، ويرى الدكتور حتى احتمال اقتباس عنوان هذه الرسالة (Ochetus) من كلمة « إيقاعات » العربية ، وبالتالي اقتباس موضوعها من الفكر الإسلامي .

وقد اقتبس الغرب - بالإضافة إلى الموسيقى الإيقاعية ودراسة الأنغام - كلمات إصطلاحية كثيرة في الموسيقى نذكر منها الكلمات الآتية :

الكلمات اللاتينية

الأصل العربي

The Lute	العسود
The Repic	الرباب
The anafil	النفير
pandero	البانديره (باللغة العامية)
Sonajas	صنوج
The guitar	القيثارة
The naker	النقارة
The kanoon	القانون

علوم الكيمياء (*)

بين المصريين والإغريق والمسلمين

حقق المصريون القدماء خطوات طيبة في مجال علم الكيمياء ، وقد انتقل جزء كبير مما حققه المصريون في هذا المجال إلى بلاد الإغريق مع ألوان من العلوم الأخرى التي اقتبسها الإغريق من المصريين القدماء .

ولكن يلاحظ أن الإغريق غلبت عليهم الاتجاهات الفلسفية ، فاكنت العلوم المختلفة من طب وكيمياء وطبيعة وغيرها في بلاد الإغريق غلالة فلسفية ، ثم انتهت هذه الدراسات بسبب هذا الاتجاه إلى الأساطير والخرافات ، وهكذا كانت الآراء النظرية هي المسيطرة على العلوم في بلاد الإغريق ، وعلى الرغم من جهود أرسطو في البحث والتدقيق ، فإن البحث العلمي الحق القائم على الملاحظة والتجربة لم يبدأ إلا عند المسلمين .

ويتجه « ول ديورانت » (١) إلى التأكيد على أن المسلمين هم الذين استحدثوا علم الكيمياء بوصفها علما من العلوم ، وهم الذين أدخلوا عليها الملاحظة الدقيقة ومنهج البحث العلمي القائم على التجربة والعناية برصد نتائجها ، وابتكروا لها الآلات فتمكنوا بذلك من الكشف عن هذا الحشد الكبير من المنجزات التي كانت من المعجزات في هذا الميدان ، ومن أجل

(*) هذا الموضوع من إضافات المترجم .

(١) قصة الحضارة ج ١٣ ص ١٨٧ .

هذا يقول جابر بن حيان : ما افتخرت الحكماء بكثرة العقاقير ، وإنما افتخرت بجودة التدبير (١) .

وهكذا اهتم المسلمون اهتماماً واسعاً بالتجربة وتبعوا مراحلها بدقة ، وأثبتوا نتائج هذا التتبع ، متخذين القاعدة التي ترى أن الشك أول شروط المعرفة ، وهى قاعدة لم يعرفها الغرب إلا بعد عدة قرون .

ويصف جابر بن حيان منهجه التجريبي بقوله :

— والله قد عملته بيدي ، وبعقلي قبل اليد ، وبحث عنه حتى صح ، وامتحنته فما كذب .

— فمن بى نتائجه على الدربة كان عالماً حقاً . ومن لم تكن له دربة لم يكن عالماً .

— من لم يعمل ولم يجرب لم يظفر بشيء أبداً .

وانتفع المسلمون بدراساتهم في الكيمياء في الصناعة والطب ، واستخدموا أكسيد المغنسيوم في صناعة الزجاج وعرفوا صناعة الصابون ، واستخرجوا الزيوت العطرية من الزهور ، واستخرجوا المواد التي تمنع الصدأ عن الحديد ، وتجعل الخشب غير قابل للاحتراق ، ووصلوا إلى طرق متعددة لدبغ الجلود وتصنيعها ، وتطورت عندهم صناعة الورق ، كما ظهر على يد جابر بن حيان الورق الذي لا يقبل الاحتراق ، واكتشفوا البارود ، واستخدموه في قذائف واخترعوا الأسلحة النارية .

(١) محمد كمال الدين : العلوم الطبيعية عند العرب ص ٣١ .

الكيمياء لفظ عربي :

حدد الخوارزمي أن لفظ الكيمياء لفظ عربي ، مما يدل على أن هذا العلم ازدهر في رحاب الإسلام والعرب فقد جاء في كلام الخوارزمي قوله : اسم هذه الصناعة الكيمياء وهو اسم عربي مشتق من الفعل « كمي يكمي » إذا ستر وأخفى ، ويقال كمي الشهادة يكميها إذا كتمها ومنعها (١) .

إخوان الصفا وعلوم الكيمياء :

وقد بكر إخوان الصفا في الاهتمام بالدراسات الكيماوية فكتبوا سبعة عشر فصلا في هذه الدراسات من مجموعة فصول رسائلهم وعددها اثنان وسبعون (٢) .

جابر بن حيان :

ونجى إلى جابر بن حيان (٧٦٦ م) الذي يعدُّ أعظم باحث في علم الكيمياء ، وقد كانت كتبه عند ظهورها في القمة ، وصارت بعد القرن الرابع عشر أهم مصادر هذه الدراسات وأكثرها في التأثير وقيادة التفكير العلمي في الشرق والغرب ، مما سجل بحق اسم جابر في مقدمة من أفادوا علم الكيمياء وطوروه من الناحيتين النظرية والعلمية ، ومن سبق الثابت له أبحاثه في التكليل ولإرجاع المعدن إلى أصله بالأوكسجين ، كما أنه قد

(١) مفاتيح العلوم ص ١٤٦ .

(٢) كانت البصرة أهم مركز لنشاط إخوان الصفا . وقد ظهرت هذه الجماعة حوالى منتصف القرن العاشر . وتعد هذه انرسائل دائرة معارف لشمولها مختلف العلوم والفنون . وهي أول دائرة معارف في التاريخ . « المترجم »

حسن أساليب التبخر والتصعيد والصهر والتبلور ، وهو الذى أعد حامض الأستيك وحامض الكبريتيك وحامض النيتريك ، واكتشف أن الذهب والفضة يمكن أن يذوبا فى خليط من الحامضين الآخرين .

ومما توصل له جابر كذلك أنه اكتشف عدة مواد كىماوية ، واستطاع أن يعزل حجر الكحل والزرنيخ من الكبريتور ، ونظريته عن عناصر المعادن فاق بها نظرية أرسطو ، وقد قبلها الغرب وظلت أساس الدراسات فى أوروبا — بعد تعديل طفيف — حتى القرن الثامن عشر ، وكان جابر يقول :

إن واجب المشتغل فى الكيمياء هو العمل وإجراء التجارب ، وأن المعرفة الحقيقية لا تحصل إلا بهما ، وفى كتابة « نهاية الإتقان » وصف للتجارب والعمليات الكىماوية التى قام بها ، وفى هذه العمليات من الدقة مالا يقل عما نجده فى تجارب العصر الحاضر .

مسلمون آخرون اهتموا بالكيمياء :

واستطاع الجاحظ (٨٦٨ م) خلال دراساته الكىماوية أن يحصل على النشادر من روث الحيوان (ملح الأمونيا) عن طريق التقطير الجاف .

ومن عظماء الباحثين فى الكيمياء (الرازى ٩٢٣ م) وقد ترجم إلى اللاتينية كتابه الضخم المسمى : « كتاب الأسرار » وقام بترجمته Gerald of Cremone فكان أشهر مرجع فى عهده .

وكتب التيفاسى (١٢٥٣ م) رسالة عنوانها « أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار » شرح فيها عناصر أربعة وعشرين حجراً من الأحجار الكريمة وتكلم عن طبيعتها .

وسار البيرونى فى هذا المضمار فقدم فى كتبه عن الطبيعة دراسات كاملة تقريباً عن الكثافة النوعية لثمانية عشر نوعاً من المعادن والأحجار الكريمة .

العلوم الطبيعية

(الصوت والضوء)

وصل المسلمون في أبحاثهم في العلوم الطبيعية إلى غاية لا تقبل عن الغاية التي وصلوا إليها في الرياضيات والكيمياء ، فقد كتب الكندي الفيلسوف المشهور في علم الضوء ، كما كتب في كثير من العلوم ، ومن كتبه التي اشتهرت في الشرق والغرب مصنّفه في علم البصريات مطبقاً على الآراء الهندسية والفسولوجية (علم وظائف الأعضاء) وكانت ترجمته التي عنوانها : De aspectibus ذات أثر كبير في ثقافة Roger Bacon .

ابن الهيثم :

على أن ابن الهيثم (١٠٣٩ م) فاق الكندي في هذا المجال من الدراسات ، فقد أثبت أنه — بالإضافة إلى نبوغه في الرياضيات والفلسفة — كان أعظم مسلم في دراسة البصريات وعلم الضوء ، وينسب إليه أنه كتب مائتي كتاب في هذه الدراسات .

ومن مبتكرات ابن الهيثم أنه عارض أقليدس وبطليموس في قضية مصدر الشعاع الذي يسبب الرؤية ، فأثبت أن الرؤية تتم بواسطة أشعة تنبعث من المرئي ، لا من العين كما كان يظن أقليدس وبطليموس . وأثبت ابن الهيثم بالتجربة انعكاس الضوء وانكساره ووضع قانون سير الأشعة سيرا كروياً (منحنياً كانهاء مسطح الأرض) واكتشف مبادئ النقل النوعي ، كما

اكتشف أن وزن الجسم يختلف باختلاف كثافة الهواء الجوى قبل أن يعرف هذا بأوروبا بخمسة قرون وأثبت كذلك قانون الجاذبية .

ومما ينسب كذلك لابن الهيثم أنه بتجاربه استطاع أن يكتشف نظرية العدسات المكبرة ، وقد اخترعت هذه العدسات في إيطاليا بعد هذا الكشف بحوالى ثلاثة قرون .

وقد ترجمت رسالة ابن الهيثم فى البصريات إلى اللاتينية سنة ١٥٧٢ م وكان لها تأثير كبير فى تطوير هذه الدراسة بالغرب ، وكانت أساساً لكل الدراسات والأبحاث التى كتبها علماء أوروبا فى العصور الوسطى ، ولا يستثنى من ذلك Leonardo و Bacon و Kepler .

وفى مطلع القرن الثالث عشر كتب الجزارى كتاباً هاماً فى الميكانيكيات ، ووصف باحث آخر اسمه رضوان ساعة مائية قال إن أباه قد صنعها ، واخترع المسلمون الرقاص والمرايا ، وعندهم انتقلت هذه الأشياء إلى أوروبا ، وكتب ابن سينا رسالة فى التعدين واستخراج المعادن ، فأصبحت من أهم المصادر التى اعتمد عليها الباحثون الغربيون فى دراسة طبقات الأرض .

علم التاريخ الطبيعى

كانت أبحاث المسلمين ودراساتهم فى التاريخ الطبيعى عالية المستوى كبيرة الفائدة . وقد شملت الدراسات النظرية والعملية عن النبات والحيوان .

فى النبات نجدهم ينشئون حدائق للتجارب الزراعية فى بغداد والقاهرة وقرطبة وغيرها ، وقد توصلوا فى تجاربهم إلى إدراك الاختلاف التناسلى بين بعض النباتات كالنخيل ، كما استطاعوا تقسيم النبات على أساس مصدر نموه ، وما إذا كان ينمو بنفسه (Wild) كبعض نبات الصحراء ، أو ينمو بطريق البذور كأكثر النباتات ، أو بطريق عقل منه كالقصب .

أبو زكريا وابن البيطار :

ومن مشاهير علماء النبات المسلمين أبو زكريا (أواخر القرن الحادى عشر) الذى كتب كتاباً هاماً فى ذلك الموضوع بعنوان « كتاب الفلاحة » كان له صيت واضح خلال القرون الوسطى . ومنهم أبو جعفر الغافق القرطبي (١١٦٥ م) الذى ألف رسالة حشد فيها كل نباتات أسبانيا وشمالى إفريقيا ، وسَمَّى كل نبات باسمه العربى واللاتينى والبربرى ووصف هذه النباتات وصفاً بالغ الدقة .

وجاء بعد ذلك ابن البيطار (١٢٤٨ م) وهو ألمع مؤلف فى هذا العلم فى العصور الوسطى ، وقد زار ابن البيطار عدة أقطار ليدرس الأعشاب والنباتات ويجمع المادة والأفكار حتى استطاع أن يؤلف كتابين شهيرين ، تحدث فى أحدهما عن مائتى نوع من أنواع النباتات ، فقدم معلومات لم تكن معروفة قبله . وهذا عهد كتابه هذا فريداً فى بابهِ ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية ، وأعيد طبع بعض أجزاء من

الترجمة سنة ١٧٥٩ م وعلى العموم فقد أضاف العرب لعالم النبات دراسات عظيمة وقدموا للباحثين معلومات ذات بال عن حوالى ألفى نوع من النباتات لم تكن معروفة قبلهم .

الجاحظ والدميرى المصرى :

وأما عن الحيوان فإن الجاحظ كتب فيه كتابه الشهير : « كتاب الحيوان » وهو يحوى مبادئ نظرية النشوء الحديثة . كما يحوى كثيراً من المعلومات عن سيكلوجيا الحيوان .

ومن مشاهير الذين كتبوا عن الحيوان الدميرى المصرى ، (١٤٠٥ م) ولعله أشهر المسلمين الذين كتبوا فى هذا الباب ، وكتابه « حياة الحيوان » أعيد طبعه عدة مرات .

وهناك كتاب عن تدريب الصقور ينسب إلى فردريك الثانى ، ويرى بعض الباحثين أنه أقدم كتاب فى موضوعه ، ولكن الحقيقة أنه مبنى على تراجم لاتينية لمؤلفات عربية وفارسية فى نفس الموضوع .

الطب

قبل الإسلام وبعده (*)

مقدمة تاريخية :

ازدهرت العلوم الطبية في الشرف القديم وبخاصة على ضفاف النيل ، وانتقل جزء من هذه العلوم إلى اليونان فثما وازدهر ، ولكنه سرعان ما خا عندما سيطرت المسيحية على أوربا ، وعندما أعلن القسس أن الكتاب المقدس هو كل شيء ، وأنه يحوى كل ما تحتاجه البشرية ، وأن ما سواه باطل .

وفى هذا الجو لم يَبْقَ هناك علاج للمرضى فى أوربا، بل كان الطبيب أحيانا يقتل المريض بطريقة أو بأخرى لينقذه مما يعانى من آلام ، أو كانت الخرافات تأخذ مجالها لطرد الشياطين الذين اعتقِد أنهم يجلبون الأمراض لبني الإنسان .

ويروى « زيفريد هونكه » أن الدور المخصصة للمرضى كانت تسمى (مأوى الله) = Hotel Dieu ، أى أن الله وحده هو الذى يمكن أن يشفى هذا المريض دون وساطة علاج أو دواء ، ويقرر أن هذه الدور كانت مباءة بعيدة عن النظافة ، وعن الغذاء الصحى ، وعن الدواء .

ومثل هذا يقال عن هذه الأمكنة فى مناطق جنوب شرق آسيا ، فإن اسمها كان ولا يزال Romah Sakit أى بيت المرضى ، فهو بيت

(*) هذه الصفحات — حتى الكلام عن تطوير الطب — من إضافات المترجم

يوضع فيه المرضى حتى يلاقوا مصيرهم الذى كان ينتظر الكثيرين منهم وهو الموت ، وقليل منهم من كان ينجو ويخرج للحياة .

وقد جاء الاسم العربى أو الإسلامى لأول مرة وهو المستشفى أى مكان الشفاء ، إذ اتخذ المسلمون مكانا لتقديم العلاج والدواء للمرضى رجاء أن تعود لهم الصحة والعافية .

المستشفيات الإسلامية :

وابتداء من العصور الإسلامية المبكرة عرف المسلمون « المستشفى » فقد أقام الرسول فى غزوة الخندق خيمة بالمسجد كان يوضع فيها الجرحى ، وكان العارفون بالطب يتولون علاجهم والإشراف عليهم ، وتطورت العناية بالطب من عام إلى عام حتى أصبح العالم الإسلامى زائرا بالأطباء الميامين ، وزائرا كذلك بالمستشفيات .

ومما يذكر أن المستشفيات بالعالم الإسلامى كانت أحيانا ثابتة كمستشفيات بغداد والقاهرة وقرطبة، وكانت أحيانا متنقلة تمر بالقرى والمدن الصغيرة وتقدم العلاج والدواء للمحتاجين .

وعرف المسلمون كذلك علاج المساجين وتخصيص أطباء لهم حتى لا تنتشر الأمراض فيهم ، وحتى ينال مرضاهم الشفاء .

وكان للرجال فى المستشفيات أقسام خاصة وللنساء أقسام أخرى ، كما كانت بالمستشفيات أقسام متعددة حسب الأمراض ، وأحيانا كانت هناك مستشفيات خاصة لكل مرض من الأمراض فمستشفى للرمم والعيون وآخر للجراحة وثالث للأمراض الباطنية وهكذا ، ونتج عن ذلك وجود أطباء تخصصوا فى أمراض بعينها بالإضافة إلى الأطباء الذين برعوا فى أكثر الأمراض أو كلها

العلاج مجاني :

ومما يذكر أن العلاج والدواء كانت بدون أجر في المستشفيات ، ولدى بعض الأطباء الذين كانوا يتبارون في تقديم الخدمة العامة ، أو كانوا ينالون مرتباتهم من الحكومات .

وعرف المسلمون المستشفيات التعليمية التي كانت ملحقة بمدارس الطب وكلياته وفي هذه المستشفيات كانت توجد المراجع العلمية ، والمحاضرات جنباً إلى جنب مع المرضى ليعيش العلم بجانب التجربة .
أطباء فلاسفة وفلاسفة أطباء :

وهذه المناسبة نذكر أن الأطباء المسلمين المشاهير كانوا ينقسمون قسمين ، قسم يسمى الأطباء الفلاسفة وهؤلاء يباشرون الطب ويطوّرونه وفي قمتهم الرازي ، والقسم الثاني يسمى الفلاسفة الأطباء وعلى رأسهم ابن سينا ، وكان هذا الفريق يهتم بالطب دراسة ومعرفة ، فهو في القسم الأول عمل ، وفي القسم الثاني دراسة وفلسفة .

أمراض عرفها المسلمون :

والذي يطالع معارف المسلمين في الطب يجد أنهم عرفوا أنواعاً من الأمراض ودرسوها دراسة عميقة ، فقد عرفوا الجذام ، والحصى في الكلى ، والحصبة ، والجدري ، وأمراض السكر ، والتهابات الأضلاع ، وغيرها من الأمراض ، كما عرفوا العدوى ومصدرها ، والتطعيم ووسائله ونتائجه .

التشريح والتخدير :

وعرف المسلمون التشريح ومارسوه ، كما أنهم عرفوا التخدير لممارسة الجراح وبالتالي عرفوا التعقيم ، والأدوات الضرورية للجراحة والتشريح

الطب النفسى وعلاجه :

وعرف المسلمون الطب النفسى وأدركوا أسبابه وطرق علاجه ، وكان الأوروبيون يعتقدون أنه مس من الجن ، وقد قال إخوان الصفا عن ذلك : إن النفوس يعرض لها أمراض مختلفة بحسب الزمان والمكان والطباع ، ويسلك أطباء النفوس فى مداواتها مسلك أطباء الأجسام فى العلاجات المختلفة (١) .

ويذكر ابن سينا إن من أهم العلاجات النفسية تقوية المريض جسمانياً وروحياً ، وتشجيعه ليتمكن من مكافحة المرض ، وتجميل محيطه ، وإسماعه ما عذب من الموسيقى ، وإحاطته بالناس الذين يحبهم .

ويضيف الرازى إلى ذلك أن يومهم الطبيب مريضه بتقديم صحته ، وتغلبه على مشكلاته .

تطوير الطب :

طور المسلمون علم الطب تطويراً شاملاً على النحو الذى عملوه مع مختلف الدراسات ، وتأثرت ثقافة الغرب الطبية تأثراً عميقاً بما اقتبسه من المسلمين فى هذا المضمار . وقد بدأت عناية المسلمين بكليات الطب وبالمستشفيات التابعة لها فى وقت مبكر ، أى منذ اتجهوا بعنايتهم لخدمة الثقافة وخدمة العلوم ، فقد أسس هارون الرشيد فى القرن التاسع أولى كليات الطب ببغداد ، وسرعان ما تتابع إنشاء كليات الطب فى مختلف العواصم الإسلامية ، ووضعت لها الكتب الطبية المناسبة التى ترجمت فيما بعد إلى مختلف اللغات الأوروبية ،

(١) رسائل إخوان الصفا ص ٤٨٤ .

ولعل أولى الرسائل الطبية التي وضعها المسلمون ، تلك الرسالة التي كتبها على الطبري سنة ٨٥٠ م وقد اتخذت هذه الرسالة الأفكار اليونانية والهندية في الطب أساساً لها ، وكان اسمها « فردوس الحكمة » .

أحمد الطبري :

وفي نفس الفترة تقريباً نبغ أحمد بن الطبري ، وهو أول من اكتشف مرض الجرب ووصف « حشرة الحكمة » .

تطوّر الطب في كنف الرشيد :

وفي ظل الخلفاء المسلمين ورعايتهم نبغ عدد كبير من الأطباء غير المسلمين ، وفي مقدمة هؤلاء يحيى بن ماسويه (٨٥٨ م) وهو طبيب نسطوري شهير نبغ في بغداد في كنف هارون الرشيد ، وينسب ليحيى هذا ولتلميذه حنين بن إسحق (٨٧٣ م) أقدم كتب دراسية في الرمد وأمراض العيون ، وقد ترجم حنين بن إسحق مؤلفات أبقرات وجالينوس في الطب وعلق عليها تعليقات مفيدة ، وترجمت هذه المؤلفات مرة أخرى إلى اللاتينية بما حوته من تعليقات وشروح ، وأصبحت في أوروبا قبلة الدارسين خلال القرون الوسطى ، وظهر في القرون الوسطى كذلك حوالى ثلاثين مؤلفاً في الطب لكتاب عرب أسهمت مع المؤلفات السابقة في خدمة الطب وتطويره.

تقدير الغرب لجهود المسلمين :

ولهذا كانت كتب العرب هي المرجع الوحيد للدراسة الجامعية بأوروبا أكثر من خمسة قرون، وظلت كتب علوم الطب بوجه خاص هي المصدر الوحيد للفكر والدراسة طيلة ثمانية قرون ، واستمرت جامعة (مونبليه) تستشهد بآراء ابن سينا في قانونه إلى أواخر القرن التاسع عشر ، وأنصفت جامعة برستون الأمريكية الفكر العربي عندما خصصت أفخم جناح في أجمل بناء لماثر الطبيب الفيلسوف العربي أبي بكر الرازي ، وأنشأت بجانبه

دارا لتدريس العلوم العربية ونقل أفكارها للغة الإنجليزية .

جهود الرازي :

وكان الرازي (٩٢٣ م) أول واضع لعلم الطب التجريبي ، إذ كان يجرى تجاربه على الحيوانات ، ويقدم لها أنواعا من الأدوية في حالات معينة ، ويختبر تأثيرها على هذه الحيوانات ، ويسجل جميع ما يشاهده .

والرازي كذلك هو واضع طريقة المشاهدة ، التي لا تزال متبعة حتى الآن ، فكان يلدع مريضه يسرد قصته على سجيته ، ويسأله عن أحواله الحاضرة وسوابقه الشخصية والإرثية، ويدون جميع ذلك في سجل خاص يحفظه ويبني عليه تقديره لحال المريض .

والرازي كذلك هو أول من عرف الحصبة والجدرى والأمراض النفسية ، ووصف لها جميعا أنواع العلاج والدواء

وتعتبر مؤلفات الرازي دوائر معارف لكثرتها وشمولها، ويعتقد أنه فاق جالينوس في كثرة أبحاثه وعمقها، وقد كتب في علم الطب وحده مائتي كتاب، ومن أجل هذا يعده Edward Browne (١) أقلر الأطباء المسلمين وأكثرهم ابتكاراً وأعظمهم إنتاجاً . ومن أشهر كتبه « الكتاب المنصوري » وهو كتاب عظيم يقع في عشرة أجزاء ، وقد ترجم إلى اللاتينية في ميلانو حوالى نهاية القرن الخامس عشر ، وترجمت أجزاء منه حديثاً إلى الفرنسية والألمانية ، ومن

مؤلفاته الرائعة رسالته عن الجدري والحصبة ، وهي أول رسالة على الإطلاق حوت معلومات دقيقة عن تشخيص هذين المرضين وعلاجهما ، وقد ترجمت إلى اللاتينية سنة ١٥٦٥ م ثم ترجمت بعد ذلك إلى عدة لغات أجنبية ، واتخذت هذه الرسالة مكانها خلال العصور الوسطى فكانت أهم المراجع الطبية في موضوعها . وقد نشرت ترجمتها الإنجليزية سنة ١٨٤٧ م .

ومن أعظم كتب الرازي كذلك كتاب « الحاوي » وهو دائرة معارف تقع في عشرين جزءاً ، وقد جمع هذا الكتاب بين دفتيه كل ما وصل إليه الإغريق والفرس والهنود في الطب ، بالإضافة إلى مبتكرات المؤلف الطبية ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية سنة ١٢٧٩ م في صقلية ، وطبع بعد ذلك سنة ١٤٨٦ م وأعيد طبعه بعد هذا التاريخ عدة مرات ، ومن الواضح أن مؤلفات الرازي أثرت أثراً عميقاً في الفكر الغربي وكانت أساساً له ، كما كانت مناراً للغرب عدة قرون .

على بن العباس وابتكاراته :

ومن مشاهير الأطباء المسلمين كذلك على بن العباس (٩٩٤ م) وقد كتب كتاباً رائعاً في الطب عنوانه « الكتاب الملكي » ترجم أكثر من مرة إلى اللاتينية وانتشر في أوروبا ، ومن أهم مباحث هذا الكتاب تلك الفصول التي كتبها عن علم الأغذية الصحية وعلم العقاقير الطبية ، ومن مبتكرات على بن العباس إشارته إلى وجود الحركة الدموية الشعرية ، وبرهانه على أن الطفل في الولادة لا يخرج من تلقاء نفسه بل بفضل تقلصات عضلية في الرحم .

أطباء العيون (على البغدادى وعمار الموصلى) :

ومن خدم أمراض العيون من المسلمين على البغدادى وعمار الموصلى ، وقد تركا مؤلفات ممتازة تشرح أعضاء العين وما يعترىها من أمراض وطرق علاجها ، وقد ترجمت هذه المؤلفات إلى اللاتينية ، وصارت بجامعات أوروبا أحسن كتب يعتمد عليها الأساتذة والطلاب حتى منتصف القرن الثامن عشر .

وفي نفس الموضوع كتب ابن الهيثم (٩٦٥ م) رسالة عامة عن أمراض العيون بالإضافة إلى ما سبق ذكره عن مؤلفات هذا العالم الكبير ، ولا تزال الترجمة اللاتينية لهذه الرسالة موجودة حتى الآن ، وقد كانت أساس التفكير الغربى فى هذه الدراسات ، ويرى De Beor أن ابن الهيثم فاق فيتلو (القرن الثالث عشر) فى محققه وملاحظاته .

الصيدلة وابن البيطار :

ومن الأطباء المسلمين الذين لهم نصيب كبير فى هذه الدراسات ابن البيطار الدمشقى (١٢٤٨ م) مؤلف كتاب « الأدوية المفردة » وهى مجموعة من « الوصفات » الطبية التى أثبتت نجاحا عظيما فى الشرق والغرب ، وكانت من أسس علم العقاقير ، وقد ترجمت إلى اللاتينية بعنوان « Simplicibus » وطبعت ثلاثة وعشرين مرة خلال القرن الخامس عشر وبعده ، واستعمل هذا الكتاب فى تكوين أول صيدلية إنجليزية أعدتها كلية الطب فى عهد جيمس الأول ، وظلت بعض أجزاء هذا الكتاب موضع العناية فترة طويلة ، فقد أُميد نشرها سنة ١٧٥٨ م بمدينة كرمونا .

الزهرأوى وآلات الجراحة :

ونجىء الآن للحديث عن ابن قاسم الزهرأوى القرطى (حوالى سنة ١٠١٣ م) الذى كتب موسوعة فى الطب أسماها « التصريف » وقد ترجم بعض أجزاء هذه الموسوعة إلى اللاتينية فى القرن السادس عشر ، وقام بالترجمة جرالء الكرمونى . وطبعت الترجمة عدة مرات آخرها طبعة أكسفورد سنة ١٧٧٨ م وظلت - عدة قرون - الكتاب الوحيد المأول عليه فى فن الجراحة بؤربا(١) ، وقد وصفت هذه الموسوعة آلات الجراحة وصفاً دقيقاً ، وساعدت البأحتى الغربىين على وضع الأسس لمن الجراحة .

ابتكارات الزهرأوى :

وأورد الزهرأوى فى رسالته السابقة كثيراً من الآراء المبتكرة ذات الشأن فى الجراحة ، ومنها تعقيم الجروح ، وضرورة تشريح بعض الأجسام بعد الموت لمعرفة سبب الوفاة للارتفاع بهذه النتائج فى الأحوال المماثلة ، وكذلك تشريح بعض الحيوانات التى تشبه الإنسان لنفس الغرض ، ومن مبتكراته كذلك الوصول إلى مجموعة من الطرق التى تستعمل لسحق الحصاة بالمثانة .

ابن رشد وجهوده فى الطب :

ومن النخائر التى ألفها المسلمون فى الطب تلك الموسوعة التى كتبها ابن رشد بعنوان « الكليات فى الطب » ومن أهم ما ورد بها تلك الحقيقة التى أثبتتها الطب الحديث وهى أن الجدرى لا يصيب الإنسان مرتين ، ومما ورد فى هذه الموسوعة أيضاً لإيضاح كامل لوظيفة شبكية العين .

ابن سينا :

وممن وصلوا إلى القمة فى الفلسفة والطب الرئيس ابن سينا (١٠٣٧ م)

ويذكر سير توماس كليفورد (١) أن الأوربيين يرون أن مؤلفات ابن سينا في الطب غطت على ما سواها حتى على ما كتبه أبقراط وجالينوس ، ومن أجل هذا أصبحت مؤلفات ابن سينا في الطب كتباً معتمدة للدراسة بكليات الطب بجامعة أوربا مدة طويلة ، وكتاب ابن سينا بعنوان « القانون في الطب » يُعد دائرة معارف شاملة للطب والجراحة ، ولذلك أصبح - ابتداء من القرن الثاني عشر حتى القرن السابع عشر - المرشد الرئيسي لعلوم الطب في أوربا ، وقد طبع هذا الكتاب - في خلال الثلاثين عاماً الأخيرة للقرن الخامس عشر - أكثر من خمس عشرة مرة باللغة اللاتينية ، كما طبع مرة باللغة العبرية ، وبلغ من تقدير الأوربيين له أن طبعت ترجمة إنجليزية لبعض أجزائه سنة ١٩٣٠ م في مدينة لندن ، ويقول وليام أوسلر (٢) : إن هذا الكتاب كان مرجعاً مقدساً للدراسات الطبية ، وقد حظي بهذه المكانة مدة لم يحظ بها مرجع آخر .

ابن زهر :

ومن أطباء الأندلس المشاهير ابن زهر (١١٦٢ م) ويعتبره ابن رشد أعظم طبيب مسلم ، وقد كتب في الطب عدة كتب أهمها « التيسير في المداواة والتدبير » ويعتقد الكثيرون أن ابن زهر أول الباحثين في موضوع الإحساس بالعظام ، وموضوع حشرة الجرب ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية وطبع أكثر من مرة .

المسلمون والعدوى :

وقد تكلم الأطباء المسلمون عن العدوى ووسائل انتقالها ، ومن عني

(١) المرجع السابق .

(٢) The Evolution of Medical Science

بهذا الموضوع ابن الخطيب الذى كتب كتاباً شرح فيه أن العدوى تتم بواسطة الاتصال بمحمل الجراثيم مباشرة أو عن طريق ملامسة الأوعية التى يستعملها والهواء الذى يحيط به .

وقد صنف ابن جزلة (١١٠٠ م) تقويمياً للأمراض قريب الشبه بالتقاويم الفلكية من ناحية الشكل ، عدد فيه الأمراض وأوجز أدواءها ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية سنة ١٥٣٢ م .

الطب البيطرى :

ولم يغفل المسلمون الطب البيطرى ، وأهم من عنى به يعقوب ابن أنحى حزام (٩٠٢) الذى كان بيطاراً ببلاط الخليفة المعتضد وكتب رسالة فى تربية الخيل عنوانها « الفروسية وشياه الخيل » حوت كثيراً من مبادئ فن البيطرة .

وفى الحيوان عرف العرب التهجين ، وتحسين النسل ، وقد أخذت الخيول العربية شهرتها العالمية من ثقافة العرب فى هذا المجال ، ويعتبر كتاب الحيوان للجاحظ من أروع ما كتب فى هذا المجال من حيث الدقة والوصف والأدب والتجارب الدقيقة ، وهو يحكى ذلك بقوله فى مقدمة هذا الكتاب « جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الخيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا ، وبين الصديق سببا ، وحبب إليك التثبُّت ، وزين فى عينك الإنصاف .

التخدير :

ومن معارف المسلمين الطبية أنهم عرفوا الوسيلة لتنقية الدم فى العروق وعرفوا التغذية الصناعية بواسطة الأنابيب العضية ، واستعملوا مادة الأفيون

فى عمل مواد تنظيف الأسنان وتطهير اللثة ، واخترعوا مادة البنج الى كانت تستعمل عند العمليات الجراحية .

والعرب أول من نظموا العقاقير الطبية كما سبق القول ، وهم أول من أنشئوا الصيدليات ، واستعملوا المستشفى المنقل وهو أعظم مما يعرف الآن بعربات الإسعاف لأنه لا يقدم الإسعافات السريعة فقط بل يقدم علاجاً أرقى وأشمل ، ويتولى عمل العمليات الجراحية ، وينقل من باد إلى آخر لهذا الغرض .

وابتكر المسلمون إجراء الكشف الطبي للتأكد من صلاحية من ستوكل لهم أعمال تحتاج إلى شروط صحية خاصة .

وقد ساعدتهم معرفتهم بالكيمياء على ابتكار عقاقير طبية لم تكن معروفة قبلهم ، وعلى تركيب عقاقير خاصة من عدة مواد ، ولا يزال كثير من ابتكاراتهم الطبية وعقاقيرهم مستعملة حتى العهد الحاضر . وستكلم فيما بعد عن الصيدلة وتاريخها وجهود المسلمين، فيها .

وقد تسرب إلى اللغات اللاتينية كثير من الكلمات العربية ذات المدلول الطبي نورد منها الكلمات التالية :

اللغة اللاتينية	الأصل العربي
Comphre	كافور
Rob	رب : نوع من المربي
Safran	زعفران
Surop	شراب من الماء والسكر يستعمل للعلاج مع إضافة بعض المواد الطبية كما يتبع حتى الآن
Alkhosam	الخزام
Sodaa	صداع وكانت كلمة Sodaa في العصور الوسطى اللاتينية تستعمل بمعنى دواء للصداع .
Muac	المسك
Alcohol	الكحل .
Cotton	القطن
Arithmid	إثمد .
Tutty	توتياء .

ويقول سير توماس كليفورد (١) : إن كثيراً من العقاقير والوصفات الطبية المستعملة في العهد الحاضر يرجع أصل تركيبه إلى العرب ، ولا يستثنى من ذلك إلا ما ساعد عليه علم الكيمياء الحديث .

وقد بدأ الطب العربي يؤثر في أوروبا منذ منتصف القرن الحادى عشر

ولكن الأثر الواضح بدأ بعد القرن الثالث عشر حيث أصبح الطب العربي قدوة انبثق منها شعاع الفكر الأوربي في الدراسات الطبية . وأصبح المادة التي اعتمد عليها الأساتذة والطلاب في كليات الطب بالجامعات التي بدأت آنذاك تظهر في بادوا (Padna) وبولونيا (Bologna) ومونتيلير (Montpelier)

والدى يزور كلية الطب بجامعة باريس الآن يرى صورتي العالمين المسلمين العظميين الرازي وابن سينا تزدان بهما أعظم الأبهاء في هذه الجامعة العريقة .

المسلمون وطرق البحث العلمى

خصص Briffault فى كتابه Makiny of Humanity فراغاً كافياً شرح فيه نقطة هامة من مآثر المسلمين العلمية ، تلك طريقة البحث التى ابتكروها ولم تكن معروفة قبلهم ، وهو يقول فى هذا الموضوع ما يلى :

« تلقى Rager Bacon عن العرب ثقافته العلمية وطرق البحث العلمى ، ولا يستطيع بىكون ولا سميّه الذى جاء بعده أن يدعى أنّهما ابتكرا الطريقة التجريبية ، تلك الطريقة التى هى من صنع العرب وحدهم ، ولم يسبقهم لها باحث أو مفكر ، وكل ما عمله بىكون أنه كان تلميذاً مخلصاً للمسلمين فتلقى أفكارهم كما تلقى عنهم الطريقة التجريبية التى ابتكروها ونقلها إلى أوروبا المسيحية ، وظل بىكون يعترف بهذا دون ملل ، وكان يؤكد أن علوم المسلمين كانت له والمعاصريه الطريق الوحيد للثقافة الصحيحة ، أما النقاش حول هذا الموضوع ومحاولة إسناد الطريقة التجريبية لغير العرب فليست إلا حلقة من حلقات التضليل ، وليست إلا تصحيحاً فى فهم المصدر الحقيقى للحضارة الأوربية ، ومن الواضح أن بىكون لم يبتكر الطريقة التجريبية كما يدعى المتأخرون، إذ كانت هذه الطريقة واسعة الانتشار فى أوروبا فى عهد بىكون مما يدل على أنها كانت قد بدأت قبله بزمان طويل .

« ومع أنه لا يوجد جانب واحد فى الحضارة الأوربية دون أن تكون

ثقافة المسلمين واضحة التأثير فيه ، فإن تأثير المسلمين أخطر وأوضح في الروح العلمية وفي الدراسات التي تحتاج إلى التجارب لإثباتها .

« والدراسات العلمية انبثقت عن مدنية المسلمين بلا شك ، فالعالم القديم كان مناهضاً لهذا النوع من الدراسات ، لقد اهتم الإغريق بالتنسيق والتعميم والنظريات ، ولكن الدراسة التي تحتاج إلى صبر ، واختبار طويل ، وملاحظة دقيقة ، وبحث في التفاصيل ، وتجارب متعددة ، هذه الدراسة غريبة جداً على الفكر الإغريقي ، والدراسات العلمية التي ظهرت في أوروبا كانت نتيجة لروح جديد في البحث ، وطرق حديثه في الاختبار والفحص ، وكانت كذلك نتيجة للتجارب والملاحظات والتقدم في الرياضيات ودقة المقاييس ، وكل هذه الدعائم لم تكن معروفة للإغريق ، إنها جميعاً هدية العرب إلى أوروبا » اهـ .

وقد تحدثنا عن بعض الطرق التي سلكها المسلمون في البحث العلمي عند كلامنا عن علوم الكيمياء فيما سبق .

الصيدلة(*)

تاريخ الصيدلة :

كان الأطباء في العصور السابقة يباشرون شئون الصيدلة ، فالطبيب هو الذى كان يفحص المريض ويعرف مرضه ، ويعد له الدواء ويقدمه إليه ، وهذا كان الطبيب يحمل عبء الطب والصيدلة والتمريض ، ويتطور الزمن وتعقيد الأمور كان لابد من ظهور الصيدلى بجوار الطبيب ليأخذ تعليمات الطبيب ويحاول أن يضعها موضع التنفيذ ، وهو بهذا يصبح مسئولاً عن الحصول على الأعشاب المختلفة ، ومعرفة البدائل عند اختفاء العشب المطلوب .

وبجوار الصيدلى ظهر فن التمريض أيضا وكلها فنون مساعدة للطب .

وتخصص الصيدلى في هذه الشئون وعرف تفاصيلها ، فهو كما يقول البيرونى : عميق المعرفة بالعقاقير الضرورية بأجناسها وأنواعها وصورها المختارة ، ويجيد خلط المركبات من الأدوية .

وقد كان ظهور مهنة الصيدلانى على يد العرب ، فهم أول من فصلوا بين واصف الدواء والطبيب ، ومحضرة أو معدة .

(*) الكلام عن الصيدلة من إضافات المترجم .

الصيديات العامة :

عندما فصلت الصيداية عن الطب ، ظهرت الصيدليات بجوار المستشفى .
وظهرت مستقلة أحياناً ، فقد أصبحت كائناً خاصاً ، وأصبحت الصيدلة مهنة مستقلة لها عميدها وعليها مسئوليتها ، وكان المحتسب يباشر نشاطه في ملاحظة الدقة في الصيدليات وفي أعمالها ، بحيث يكون الدواء مطابقاً لما كتبه الطبيب .

وهناك أدوية كان الصيادلة يعدونها بحيث تكون محاضرة عند طلبها ويكثر ذلك عند انتشار أوبئة بذاتها ، أو عندما يكون إعدادها صعباً يحتاج إلى وقت طويل ، فهذه الأدوية كانت تُعدُّ وتعبأ بدقة تامة لتسلم للمريض عندما يطلبها .

عقاقير أضافها العرب :

ومن التجارب العربية أضاف الإنسان العربي مواد كثيرة ذات مفعول خطير في جوانب متعددة من الأمراض ومن ذلك الكافور والقهوة والصندل والمسك والعنبر ، وكثير جداً غيرها وكان ذلك لخبرتهم في علم النبات ولتجارهم الراقية فيما يتعلق بالأعشاب .

ومن هذه الاستعمالات تنبيه القلب بواسطة القهوة ، ووصف البن المطحون لعلاج الجروح والتهاب اللوزتين ، واستعمال الكافور لإنعاش القلب ، واستعمال مسحوق الحناء للجروح .

وهم الذين تعرفوا على عفن الخبز واستعملوه مرهما للجروح .

واستنبط العرب دواء صد أنواع السموم ، وآخر لتسهيل الهضم ،

وخففوا وطأة بعض العقاقير بمزجها بعصير الليمون أو البرتقال أو مسحوق القرنفل .

والعرب هم الذين غلّفوا بعض الأدوية بمادة سكرية حتى يسهل تناولها .
والعرب هم الذين ابتدعوا كثيراً من الطرق لتحضير الأدوية وتنقيتها كالتقطير والترشيح والتبخير والتصفيد والتدويب وغيرها .

وقد ابتكر الزهراوى جهازاً نقش عليه اسم الأقراص التي تستعمل لبعض الأمراض ، بحيث تكون متناسبة في حجمها وواضحة في استعمالها .

وهناك مراجع عربية لعبت دوراً كبيراً في تاريخ الأدوية منها كتاب فردوس الحكمة في الطب للطبرى ، وكتاب سر الأسرار للرازى ، وكتاب (المكى) لعلى بن عباس ، وكتاب الصيدلة في الطب للبىرونى ، وكتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار ، بالإضافة إلى ما كتبه ابن سينا في كتابه « القانون » عن الأدوية وأنواعها وفوائدها ، وقد أشرنا لبعض هذه الكتب فيما سبق .

الباب الثالث

الأفكار الفلسفية وتطورها

تقديم :

لم يسجل المسلمون في ميدان الفلسفة ابتكارات واسعة كذلك التي سجلوها في ميدان العلوم (١) ، ومع هذا فقد حققوا في هذا المجال تقدماً جديراً بالذكر ، فقد درس المسلمون فلسفة الهند ، وأحاطوا بالفكر الإغريقي ، كما كانت لهم أفكار وتأملات تابعة منهم ، وكانت هذه الأفكار عميقة وشاملة ، واضطام المسلمون بالمشكلات الفلسفية التي قابلت غيرهم في مختلف العصور ، وكانت الحلول التي اقترحوها لهذه المشكلات غير جازمة وإن كانت أوضح من تلك التي اقترحها سواهم من الأمم ، وعلى كل حال فقد كانت حلولهم مقنعة إلى حد كبير ، وقد مهدوا بهذه الحلول الطريق إلى دراسات أوفى ، وأسهموا بها في النهضة الأوروبية التي اتخذت من ثقافة المسلمين أهم أسسها ، وهذا في الحقيقة يمكن أن يكون سبباً هاماً من أسباب الفخار للمسلمين .

والمشكلات التي شغلت الفكر الفلسفي الإسلامي كثيرة ، وأهمها مشكلة الوحي والعقل ، وحدوث العالم ، وخلق الأفعال . . ويمكن أن نقسم المفكرين المسلمين إلى الجماعات التالية :

١ - المتكلمون ويشمل هؤلاء طائفتين هما :

(أ) المدرسة العقلية (المعتزلة) .

(ب) المدرسة النقلية (الأشاعرة) .

٢ - المتصوفة .

٣ - الفلاسفة .

وسنتكلم عن كل طائفة على حدة .

(١) السبب في ذلك أن الإسلام كبح تفكيرهم في مجال الفاسفة . فكانوا يخافون الانحراف فظل النطاق الفلسفي الذي يشارونه ضيقاً نسبياً . (المترحم)
(م ٨ - الفكر الإسلامي)

(١) المدرسة العقلية (المعتزلة)

بدأ التفكير الفلسفي عند المسلمين بالمعتزلة ، وفلسفتهم أسس يمكن إجمالها فيما يلي .

— الوحي والعقل مصدران للمعرفة ، ومن أجل هذا لزم أن يكون بينهما تناسق تام وعدم تعارض فيما يمنحان من معارف ، وإذا ظهر بينهما تناقض أول النص حتى يتفق مع العقل السليم .

— العالم حادث ، وليس أبدياً ؛ له أول وله نهاية .

— الجوهر شيء يمكن معرفته أو الحديث عنه .

— الوجود مجرد صفة يمكن أن توجد وألا توجد ، وبها يتحقق وجود شيء ، وبدونها لا يتحقق الشيء ، ومع هذا فالشيء جوهر وجنس ومرتبة ، فإذا منحه الله صفة الوجود دخل الشيء عالم الوجود وأصبح شيئاً مادياً ، والوجود هو الصفة الوحيدة التي تجعل الشيء مادياً .

— الله واحد ، وهو أبدي سرمدي ، لا مبدأ لوجوده ، ولا نهاية له سبحانه وتعالى .

وليس لله صفات زائدة عن الذات كصفات البشر الزائدة عن ذواتهم ، وإنما هو تعالى قدير بذاته ، مريد بذاته ، عالم بذاته . . .

— العالم حادث ، والله خالق العالم .

— الله لا يريد الشر ولا يخلقه ، كما أنه لا يخلق المستحيل .

— والله لم يخلق أفعال العباد ولا قضى عليهم فعلها ، والإنسان هو الذى يخلق فعل نفسه ، ويحاسب من أجل ذلك على ما يفعله .

— العدالة فى قمة الصفات الخلاقية ، وقد ألزم الله بها نفسه .

— ليست هناك شفاعاة للأبياء والصديقين يقدمونها لينالوا النجاة لاتباعهم الأشرار ، فالعدالة الإلهية تقضى أن ينال المذنبون جزاء خطاياهم .

وأبرر أساتذه هذه المدرسة الفكرية واصل بن عطاء (٧٤٨ م) والنظام (٨٤٥ م) والجاحظ (٨٦٨) وإخوان الصفا (منتصف القرن العاشر) ، وقد أثار النظام بعض الآراء التى لم يستسغها مفكرو عصره فذهب ضحية ما أثار .

(ب) المدرسة النقلية (الأشاعرة)

اتضح معالم هذه المدرسة وظهرت اتجاهاتها كنتيجة للنهج العقلي الذي سلكه المعتزلة ، فقد أثار اتجاه المعتزلة كثيرين من علماء المسلمين في أمكنة مختلفة ، فهبوا يقاومون اتجاههم ، ويتمسكون بالنقل ، ويحاولون التوفيق بينه وبين العقل ، ومن ثم فالمدرسة النقلية لم تنشأ في مكان واحد أو في فترة واحدة ، وإنما قادها علماء هنا وعلماء هناك ، يردون ما عدوه زيغا من المعتزلة وأهم من قاد هذه الحركة ابن حزم بالأندلس ، والطحاوي بمصر وأبو منصور الماتريدي في ما تريد بالقرب من سمرقند ، والأشعري في العراق ، وله تنسب هذه المدرسة ، وذلك لسعة نفوذه وعمق أبحاثه ، وقد اتخذ الأشاعرة طريق المحاوراة الذي انتهجه المعتزلة ليستطيعوا به أن يدحضوا اتجاهات معارضيهم بأسلحة تشبه أسلحتهم .

ومع أن الأشاعرة يختلفون مع بعضهم البعض حول بعض النقاط ، فإنهم يلتقون في العناصر الرئيسية للتفكير ، وأهم الموضوعات التي يتحدثوا عنها هي :

- ١ - مصدر المعرفة .
- ٢ - خلق الأفعال .
- ٣ - مشكلة الصفات .
- ٤ - نظرية الجوهر الفرد .

وسنتحدث عن كل من هذه بشيء من التفصيل (١).

١ - مصدر المعرفة :

العلم أن تعرف الشيء على حقيقته لا أن تعرفه كما يبدو لك ، ولكن ما الحقيقة نفسها ؟ لقد أجاب المسلمون عن هذا السؤال لإجابة أشمل مما أورده « كانت » على السؤال نفسه ، كما أثبت ذلك ماكدونالد ، ففهم الشيء أو إدراكه ليس معناه معرفته ، وذلك لأن الأشياء تفهم وهي مرتبطة بزمان ومكان مما قد يخدع الإنسان عن الحقيقة نفسها ، وأهم المعرفة معرفة الله ، وهي قد تحصل بالعقل ولكنها لا تجب إلا بالسمع ، ويقرر الأشعرى أن العقل يستطيع أن يدرك وجود الله كما يدرك كل حسن ، ولكن العقل آلة للإدراك فقط ، أما الأصل الوحيد للتكليف فهو الوحي ، والأشعرى بذلك يقف من مسألة الحسن والقبح موقفاً وسطاً بين المعتزلة الذين يرون أن العقل يعرف الحسن من القبح وأنه لذلك مناط التكليف ، وبين السلف الذين يرون أن الشرع هو الذى يحدد الحسن والقبح وأنه لا تكليف بدون وحي .

فالأشعرى يوافق المعتزلة فى أن العقل يمكن أن يستقل بمعرفة الله، ولكنه يأخذ رأى السلف فى أن التكليف لا يكون إلا بواسطة وحي .

٢ - خلق الأفعال :

تكلم الأشاعرة عن خلق الأفعال فالتمسوا حلاً وسطاً بين رأى المعتزلة الذى يقول بأن العبد يخلق فعل نفسه ولذلك يتحمل مسئوليته . وبين رأى السلف الذى يرد الأفعال كلها لله ويرى أنها مخلوقة له تعالى ، فرأى الأشاعرة أن الفعل وإن كان مخلوقاً لله فإن للعبد قدرة واختياراً فى أكثر أفعاله ،

(١) ترجمت أفكار الأشاعرة ببعض التصرف رغبة فى إيضاح البحث واعتمدت على بعض الكتب الأصلية فى هذا الموضوع .

ويحاسب الإنسان نتيجة الاختيار الخاص الذى يصحب أفعاله الاختيارية ، واستدل الأشاعرة على وجود الاختيار فى بعض الأفعال بما هو واضح من الفرق بين العمل يقوم به النائم أو المجنون أو المكره أو المريض (كالرعدة) أو الخائف «كالرعدة» وبين الأفعال الأخرى التى يضع خطتها ويُرِدُّ العدة للقيام بها ثم ينفذها فعلا .

ولا يوجب الأشاعرة على الله فعل شيء ولو كان الصلاح والأصلح ، لأن الله مختار يفعل ما يشاء ، يثيب بفضله ويعاقب بعذله ، وذلك هو رأى السلف ، وكل ما يضيفه الأشعرى هو إيمانه بحكمة الله وتنزهه عن كل جور .

وهناك مناقشة جميلة فى هذا الموضوع حدثت بين الأشعرى (٩٣٥ م) الذى تنسب له هذه المدرسة الفكرية وبين أستاذه الجبائى المعتزلى (٩١٥ م) ، وقد بدأت هذه المناقشة بسؤال وجهه الأشعرى لأستاذه وهذا السؤال هو :

ثلاثة إخوة : أحدهم يخاف الله ويطيعه ، والثانى لا يعترف بوجود الله ، ومات الثالث طفلا ، فما نصيب كل منهم فى اليوم الآخر ؟

فأجاب الجبائى يدخل الأول الجنة ، ويلقى بالثانى فى النار ، ويقف الثالث على الأعراف لا ينال الجنة ولا يساق إلى النار .

فسأل الأشعرى : ولكن ما الحال إذا كلم الثالث ربه قائلا : رب لو أطلت عمرى لعبدتك واستحققت جنتك ؟

فأجاب الجبائى : يقول له الله تعالى : ماذا لو طال عمرك فعصيت الله واستحققت النار ؟

فعاد الأشعرى يسأل : ولكن ماذا يكون الجواب لو سأل الثانى ربه : لماذا لا تمنحني صغراً لأنجو من النار ؟

فسكت الجبائي ولم يحجر جواباً ، وانفصل بذلك الأشعري عن المعتزلة وكان من قبل على مذهبهم .

ويتخذ الأشاعرة هذه المناظرة دليلاً يردون به على من قال بأن الله يجب عليه أن يفعل الصلاح والأصلح ، ويثبتون به أن الله يفعل ما يشاء خيراً كان أو شراً ، وأن العقل يقصر أحياناً عن فهم بعض الحالات الإلهية .

ويرى الأشاعرة أن الإنسان يصدر في كل أفعاله عن الإرادة الإلهية التي تخلق كل الأفعال ، فالله يخلق الإرادة والقدرة في الإنسان ، والله يخلق الفعل عندما يعمل الإنسان ، فإذا أشعل الإنسان النار فإن الله يخلق اللهب ، وإذا ضرب الإنسان إنساناً فإن الله يخلق الألم وهكذا ، وليس الإنسان إلا موضع الفعل ومكانه ، واختيار الإنسان اختيار ظاهري وهو يسمى الكسب وبسببه تكون المسئولية .

ويتجه أكثر الباحثين المحدثين إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يكتب على الإنسان أن يفعل الطاعة أو المعصية ، بل عرّفه الطاعة والمعصية ، وأمره أن يفعل الطاعات ويتجنب المعاصي ، ثم فعَلَ الإنسان باختياره ما أراد ، ويناب أو يُعاقب على ما فعل ، ولهذا يقول هؤلاء إن الله لم يكتب على المرء أن يفعل كذا وكذا ، بل كتب أنه سيفعل كذا وكذا باختياره ، وكان ما كتبه الله فاتحاً عن علم الله الذي يشمل المستقبل كما يشمل الماضي والحاضر .

٣ - مشكلة الصفات :

من أهم المشكلات التي عنى بها الأشاعرة مشكلة الصفات ، وكان طريقهم للكلام فيها ينحون نحو محاولة التوفيق بين رأى السلف ورأى المعتزلة ، فأثبتوا لله صفات كما رأى السلف ، ولكنهم فسروها تفسيراً معنوياً على

الأشاعرة قمة عالية ، وبين الصوفية علم بارز ، إنه أشبه بالشمس الساطعة التي تختفي النجوم عند ظهورها ، ومن أجل هذا نجد أن ظهور الغزالي في الشرق قضى على كثيرين من مفكرى عصره ، وامتد سلطان الغزالي الفكرى إلى الغرب ، ولولا أن الغرب كان مشغولا بالفلسفة التي نبعت عن فكر ابن رشد الذى سيجىء الحديث عنه فيما بعد لأصبح للغزالي على الفكر الغربى سيطره أوسع وأثر أعمق .

وقد اشتغل الغزالي عميداً للمدرسة النظامية ببغداد بين سنة ١٠٩٢ وسنة ١٠٩٦ م ثم استقال من عمله وأخذ يطوف الأرض باحثاً عن الحقيقة . وانهى به المطاف إلى طوس مسقط رأسه ، ثم ألزمه السلطان أن يعلم بالمدرسة النظامية بنيشابور ، وبعد فترة استقال وعاد يلزم منزله الذى أصبح معهداً للطلاب وصومعة للصوفية والمتعبدین .

تأثير الغزالي على ديكارت :

ويمكن تقدير فلسفة الغزالي وأفكاره إذا لاحظنا حقيقة مهمة هي أن الغزالي وضع كل الملامح الرئيسية للفلسفة الغربية مبتدئة من Descartes إلى Bergson وقد تحدث Henry Lewis في كتابه History of Philosophy عن « إحياء علوم الدين » للغزالي فأبرز إلى أى مدى اعتمد الفلاسفة الغربيون على آراء الغزالي في دراساتهم ، قال : إن هذا المؤلف يحمل العناصر العلمية وطريقة البحث التي ظهرت فيما بعد في كتاب Descartes : (Discourse Sur In Methode)

حتى أنه لو وجدت ترجمة آنذاك لكتاب إحياء علوم الدين لاتضح الانتحال أبرز اتضاح .

وعلى هذا فالتقارب في الأفكار بين الغزالي و Descartes يرجع إلى الترجمات المتعددة لمؤلفات المسلمين قبل ديكارت فقد نفذت فلسفة المسلمين إلى الغرب ، وكان لها سلطان واضح على الفكر الغربي قبل ديكارت بفترة طويلة ، وكان كثير من أفكار الغزالي قد ترجم إلى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر ، وكل هذا كان ضمن المعين الذي استقى منه Descartes والفلاسفة اليهود والمسيحيون على السواء ، ودليل ذلك أن فلسفة الغزالي وآراءه قد انعكست على الفلاسفة الغربيين قبل Descartes بزمان طويل ، فتنظرية الشك للغزالي تبرز بوضوح في مؤلفات Jehuda hal-Levi (١١٤٥م) وفي أفكار Grescas (١٤١٠م) وانتفع Raymond Martin¹ بترجمة عبرية لكتاب «تهافت الفلاسفة» للغزالي ، وتسربت أفكار الغزالي إلى كثيرين غير هؤلاء مثل Pascal الذي تبرز في مؤلفاته أفكار الغزالي وفلسفته ، ومثل St. Thomas الذي تلقى دراسته بجامعة نابلي بتوجيه الكنيسة ، واستعمل فيما بعد أسلوب الغزالي ومناقشاته في مهاجمة أفكار أرسطو اللاتينية على نحو ما فعل الغزالي نفسه .

وكل هذا يؤكد لنا أن الالتقاء بين أفكار ديكارت وأفكار الغزالي لم يجر عفواً ، وإنما هو نتيجة طبيعية لتعرف الأول على أفكار الثاني خلال الترجمات المتعددة ، وعن طريق الكتاب الغربيين الذين سبقوا Descartes في الاقتباس من الغزالي ، وسنلم فيما يلي بنظرية الشك عند الغزالي ، تلك النظرية التي تبعتها ديكارت تقريباً واقتفى أكثر خطواتها (١) :

(١) جاءت الترجمة في الفقرات التالية بشيء من التصرف. فقد اقتبست من مؤلفات الغزالي وبخاصة كتابه «المنقذ من الضلال» ص ٣ وما بعدها «ما يزيد إيضاح هذه المسألة التي وردت مقتضبة في الأصل الإنجليزي كما وضحت اتجاه ديكارت وفلسفته عن الشك بما كتب عنه في المظان المختلفة . (المترجم)

يقول الغزالي إن التعطش إلى درك الأمور كان رأيَه وديدنه من أول عمره ، غريزةً وفطرة من الله ، وضعها في جبلته من غير اختيار منه ، فلم يسيطر عليه تقليد لرأى سبقه ، ولا شملته عقيدة موروثه ، بل أراد أن يصل إلى المعرفة ببحثه هو ، وأن يحصل على اليقين بخالص فكره .

وظن الغزالي أن الحسيات والضروريات العقلية هي أهم ما يكسبه العلم اليقيني ، ولكنه سرعان ما فقد الثقة في الحسيات ، إذ تبين له الوهم والخداع فيها ، فالعين مثلاً ترى الظل ساكناً وهو في الحقيقة متحرك ، وترى النجم صغيراً وهو في الحقيقة كبير ، والذي أفقده الثقة في الحسيات هو العقل .

بقى لدى الغزالي من وسائل العلم اليقيني الضروريات العقلية، ولكنه شك في هذه أيضاً . وهو يقول في ذلك « ولعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر ، إذا تجلبى كذب العقل في حكمه ، كما تجلبى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه ، وعدم تجلبى ذلك الإدراك لا يدل على استحالة » .

وتأيّد شكّه في الضروريات العقلية بالرؤى التي يراها في نومه ويعيش فيها فترة من الزمن « ويتفاعل » معها ثم لا يلبث أن يتيقظ فتذوب هذه الرؤى وهو يقول في ذلك : فيم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس* أو عقل هو حق بالإضافة إلى حالتك، ألا يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى منامك ؟ » .

وإذا سقط الاستدلال بالحسيات والضروريات العقلية فإنه لا أمل في الثقة في شيء آخر ليُسْتَدَلَّ به، وبهذا قوى الشك عند الغزالي واشتدّ داؤه ، وظل على ذلك حوالى الشهرين ، فكان كما يقول « على مذهب السفسطة بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال » .

ثم شفاه الله من هذا الداء ، وعاد إليه اليقين بالضروريات العقلية ، وهو يصف الدواء كما وصف الداء فيقول « ولم يكن شفاؤى بنظم دليل ، وترتيب كلام ، بل بنور قدفه الله تعالى في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح المعارف فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة فقد ضيق رحمة الله الواسعة » .

وعاد الغزالي بعد ذلك يدرس مذاهب الآخرين وأفكارهم ، وهو يقول في ذلك « أخذت استكشف أسرار مذاهب كل طائفة ، لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على باطنيته ، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته ، ولا فيلسوفاً إلا وأقصّد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلا وأجتهد في الإطلاع على غاية كلامه ومحاولته ، ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر تصوفه ، ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطّلاً إلا وأنجس وراءه لمعرفة أسباب جرأته في تعطيله وزندقته » .

ولم يجد الغزالي اليقين إلا عند الصوفية ، فعرف أنهم أحسن الناس علماً وأزكاهم عملاً .

ويتفق ديكرارت مع الغزالي في بعض هذه الخطوات الفكرية عن الشك فهو يرى « أن أنواع الوجود مشوبة بأوهام كثيرة وأخطاء لا حصر لها ، ولا سبيل لأن نصل فيها إلى يقين ثابت إلا إذا نبذنا ما ألفناه من أفكار ، وما درجنا عليه من آراء ، فنحن مضطرون لأن نشك في كل شيء لأن الحس يخدعنا والحقائق العامة التي ندّعيها معرضة لتأثير المخيلة والوهم ، بل أكثر من ذلك نحن نخطئ في البرهنة والاستدلال ، وما جاز عليه الخطأ زال عنه اليقين ، ومن يلبرينا أن ليس هناك روح خبيث يخدعنا دائماً فيصور لنا الباطل حقاً والحق باطلاً ؟ » .

وقد وصل الشك بكليهما إلى درجة بعيدة أوشكت أن تصل إلى شك كل منهما في وجوده ، وكانت عودتهما إلى اليقين عند درجة متقاربة ، فالغزالي عاد إلى اليقين بالفكرة التي عبر عنها بقوله : أنا أرغب فأنا موجود . واقتنى ديكارت أثر الغزالي في ذلك أيضاً ، فالفكرة التي عاد بها إلى اليقين يعبر عنها بقوله : أنا أفكر فأنا إذاً موجود .

ويتفق الغزالي وديكارت في أن الشك عند كليهما لم يكن للهدم ، وإنما كان وسيلة للمعرفة والوصول إلى الحقائق .

وديكارت وتلميذه اسبينوزا يتبعان رأى الغزالي فيما يتعلق بصفات الله وصلتهما بذاته ، فذات الله عندهم واجبة الوجود ولا يحتاج تعالى إلى علة توجده ، وهو عند اسبينوزا جوهر لا نهائي ، له أعراض (Attributes) لا نهائية ، والجوهر (Substance) الذي يتحدث عنه اسبينوزا قريب الشبه بالله الذي يتحدث عنه الغزالي ويكاد اسبينوزا يثبت للجوهر نفس الصفات التي يشبها الغزالي لله ، مما يوحى بالاعتباس والافتداء .

الغزالي ومصادر المعرفة :

وللغزالي مذهب في مصادر المعرفة يعتبر المنار لكل الفلاسفة الذين جاءوا بعده في الشرق والغرب ، وقد اغترف هؤلاء الفلاسفة كل بقدر طاقته من نبع الغزالي ، وخلاصة رأى الغزالي أن التجربة هي وسيلة المعرفة ، وتشمل التجربة عند الغزالي جوانب الحس والعقل والروح ، أى تشمل التجربة التي يدركها الإنسان بحواسه ، وكذلك تلك التي يمارسها بعقله ، كما تشمل التجربة التي ترد إليه عن طريق الفيض دون خضوع إلى قوانين كالمعرفة التي تحصل للأبياء والقديسين والصوفية بلا تجربة حسية ولا عقلية .

ومذهب الغزالي هذا كان معيناً اغترف منه الفلاسفة الغربيون كل

بحسب مقدرته كما قلنا ، فاتجه لوك Locke إلى المذهب الحسى ، ورأى أن الحواس هى وحدها وسيلة المعرفة ، والعقل تابع لها متأثر بها ، ومما أثر عنه قوله : « لا شىء فى العقل لم يكن قبل ذلك فى الحواس » .

واتجه كانت Kant إلى أن العقل وحده هو وسيلة المعرفة ، لأن الحواس موجودة عند الحيوان دون أن تؤدى إلى المعارف .

أما الاتجاه الروحى فلم يبلغ درجة النضج عند الأوربيين وإن كان برجسون Bergson قرب منه حينما تحدث عن المعرفة عن طريق الحدس والبدئية والوجدان .

وتمتاز نظرية الغزالى فى أنها حلت مشكلات لم تحلها اتجاهات الفلاسفة الغربيين ، فوجود الله ، وطبيعة صفاته ، ومسألة الروح والعالم ، استطعنا أن نعرفها بيسر عن طريق الأنبياء والقديسين ، وقد ظلت أوروبا تسير على منوال الغزالى عهداً طويلاً ، أما فى الشرق فقد هزت أفكار الغزالى جميع الأفكار ولا تزال قوية حتى العهد الحاضر بحيث لا تستطيع أن تولد بجانبها أفكار أخرى .

٢ - الصوفية

الصوفية هم المدرسة الثانية من مدارس الفكر الإسلامى بعد المعتزلة والأشاعرة اللذين يُعدّان شعبتين المتكلمين.

والصوفية المسلمون جماعتان :

١ - جماعة آمنّت بوحداية الله وأنه خالق العالم .

٢ - جماعة قالت بوحدة الوجود ، رافضة فكرة خلق العالم من العدم ، مثبتة أن الكون مظهر الله الخارجى ، وأنه موجود من البدء ، صادر عن الله راجع إليه ، وليس ثمة فارق بين الذات والصفات ، أى بين الله والكون . وبناء على هذا المذهب تتجلى الألوهية فى البشر ، ويعتبر محمد الإنسان الكامل .

والباحث يجد فى القرآن الكريم وفى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بذوراً هامة للتصوف (١) ، ومع هذا فقد تأثر بعض المتصوفين المسلمين بفلسفات غير إسلامية كالأفلاطونية الحديثة والفيثاغورية والغنوسية (عقيدة مذهب المعرفة عند اليونان) . وبعض الاتجاهات المسيحية ، وكثير من الفلاسفة كانوا بلا شك متأثرين بالأفكار الزرادشتية والمانوية والهندوكية والبوذية .

(١) اقرأ مثلاً قوله تعالى : « التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين » التوبة ١١٢ .

ويرى الصوفية المسلمون أن الوحي هو المصدر الوحيد لمعرفة الله ، ولكنهم مع هذا اهتموا اهتماماً كبيراً بالصفاء النفسى ، لتستطيع النفس أن تتلقى بيسر ما يوحى به الأنبياء على طريق الوحي ، ويُعتبر الغزالي حلقة الاتصال بين الصوفية والأشاعرة كما سبق القول ، فقد كان أشعرياً وصوفياً فى نفس الوقت ، فاعتبر من القادة هنا وهناك .

ويتفق الصوفية المسلمون مع جميع الصوفية فى العالم فى أن الصفاء النفسى ينال بطريق واحد هو حب الله والتأمل فى صنعته . وفى أن الصفاء النفسى هو الوسيلة للوصول ، وبدونه لا يتحقق القبول ، وبدونه كذلك لا يعتمد بصلاح الأعمال .

ونذكر فيما يلى أشهر الصوفية المسلمين .

على بن أبى طالب (٦٦١ م) وربيعة البصرى (٨٠١ م) ومعروف الكرخى (٨٢١ م) وبايزيد البسطامى (٨٧٤ م) وإبراهيم بن أدهم (٨٧٥ م) والجنيد (٩١٠ م) وحسين بن منصور الحلاج (قتل سنة ٩٢٢ م) وأبو بكر الشبلى (٩٤٦ م) والقشيرى (١٠٧٢ م) وعبد القادر الجيلانى (١١٦٦ م) وشهاب الدين السهروردى (قتل سنة ١١٩١ م) وفريد الدين العطار (١٢٢٩ م) وابن عربى (١٢٤٠ م) والرومى (١٢٧٣ م) والشهيدسترى (١٣٢٠ م) وخواجه بهاء الدين (١٣٨٨ م) وعبد الكريم الجيلى (١٤٠٦ م) وجامى (١٤٩٢ م) .

ومن أشهر متصوفة الهند عبد المحسن على بنخس (١٠٧٢ م) ومعين الدين شيبسى (١٢٣٤ م) وبختيار كاكى (١٢٣٦ م) وفريد الدين شكر (١٢٦٥ م) ونظام الدين عليا (١٣٢٤ م) وأحمد سر هندى (١٦٢٤ م) .

والصوفية الأولون كانوا من الطبقة الأولى من طبقتى الصوفية أى كانوا يرون أن الله خالق الخلق ومبدعه من عدم ، ومنذ عهد بايزيد

البسطامى اتضح الميل نحو مذهب الطبقة الثانية وهو القول بوحدة الوجود وظهر هذا الاتجاه واضحاً عند الحلاج والقشيري وشهاب الدين السهروردي وابن عربي وعبد الكريم الجيلي ، وهؤلاء الذين وضعوا أساس الفكر الإسلامى فى التصوف .

ويعتبر الرومى (١٢٧٣ م) من أشهر شعراء الصوفية المسلمين وأعمقهم فكراً ، ويسميه Hegel : الشاعر العظيم ، ويعتبره لإقبال أستاذه الروحى ، وللرومى قصيدة طويلة فى التصوف اسمها « المثنوى » وقد ترجمها بروفيسور نيكلسون إلى الإنجليزية ، وكتب عنها بروفيسور حكيم كتاباً شاملاً ، و « المثنوى » من أهم الدراسات الصوفية التى دونها المتصوفون المسلمون (١) وبالإضافة إلى هذه القصيدة الشاملة هناك دراسات أخرى عن التصوف الإسلامى كتبها قادة الصوفية ، وأهم هذه الدراسات (كتاب اللمع فى التصوف) لأبى نصر السراج (٩٨٨ م) و (كشف المحجوب) لأبى الحسن على (١٠٧٢ م) و (الرسالة القشيرية) للقشيري ، (وإحياء علوم الدين) للغزالي ، و (عوارف المعارف) لشهاب الدين السهروردي ، و (منطق الطير) لفريد الدين العطار ، و (الفتوحات المكية) و (نصوص الحكم) لابن عربي ، و (الإنسان الكامل) لعبد الكريم الجيلي ، و (اللمعات واللوامع) للجامى .

وفىما يلى كلمة لإجمالية عن الاتجاهات الصوفية فى الإسلام :

الله :

الله هو الحقيقة العظمى التى لا تتغير ، مدبر الأمر ، وينسب الصوفية

(١) سنورد اقتباساً منها فيما بعد عند الكلام عن « ابن مسكويه » .

صفة الوحدة لله ، أى أنه واحد لا إله سواه ، وله كذلك صفة الوحدة في التركيب أى أنه ليس مكوناً من أجزاء ، ولا يمكن تعريفه والإحاطة به .

تلك هى المعالم التى يتفق فيها كل الصوفية تقريباً ، ثم تشعب اتجاهاتهم ، على أن أكثرهم يرى أن الله جمال وكمال ، ويراها بعضهم لإرادة ، ويراها آخرون نوراً ، وتُبرز جماعة منهم فيه صفة العلم فيرونه عِلماً ، ويتزعم البلخي وإبراهيم بن آدم وربيعة البصرى وغيرهم الاتجاه الأول ، ويتزعم الحلاج الاتجاه الثانى ، ويتزعم شهاب الدين السهروردى التفكير الثالث ، ويقف ابن عربى فى قمة من نادوا بالاتجاه الأخير .

وصفات الله ذاته ، أى أنها مظاهر ذاته ، وهى انبثاق من الوحدة المقدسة أو انعكاس لها ، وبواسطتها تحدث ظواهر العالم .

ولما كان العالم انعكاساً للحقيقة الإلهية ، ولما كانت الأشياء انبثاقاً من ذات الله التى هى كمال وجمال ونقاء ، فالأشياء أيضاً كاملة وجميلة ونقية ، وإن اختلفت درجات هذا الكمال والجمال بنسبة قربها وبعدها من مصدرها .

الروح :

وروح الإنسان انبثاق من الله كانبثاق الشعاع من الشمس ، ومن الواضح أن الشعاع قبل أن يصبح شعاعاً كان يكون مع الشمس وحدة واحدة ، فكذا الروح قبل أن تنبثق عن الله كانت جزءاً منه ، واتحاد الأرواح بالأجسام اتحاد غير طبعى ، وهو كاتحاد الضوء المنبعث من الشعاع مع

ذرات الرمال ، وبواسطة هذا الاتحاد تعطى الأجسام مظهراً يختلف تماماً عن مظهرها قبل اتحادها مع الأرواح ، والإنسان هيكل مصغر للعالم كله ، وأسهمت صفات الله المقدسة كلها في خلقه ، ولكن بصورة غير كاملة ، وعلى هذا فللإنسان مكانة فريدة .

والإنسان غير مستقر ، لأنه دائم الحركة والجهد رجاء أن يعيد وحدته مع مصدره . وهذه الحركة وهذه الرغبة هي الحب ، والحب هو فحوى الأديان ، وعلى هذا فالباحث عن الله لا يجده في البيعة أو الكنيسة أو المسجد وإنما يجده في القلب .

والهدف الوحيد الجدير بالحب هو الله الذى يعبرون عنه بأنه الجمال المقدس ، وللوصول إليه يجب على الصوفى أن يربى نفسه على حب ألوان الجمال في العالم ، وأن يتأملها ويفكر فيها بعمق لأنها مظاهر الذات المقدسة ، ولأنها درجات توصل لهذه الذات ، وحب الإنسان للجمال يرضى الله لأنه المصدر الأساسى لكل أنواع الجمال . ويمضى المتصوف في هذا الطريق صاعداً إلى المحبوب وسيعبر خلال رحلته إلى الله درجات متعددة وسيعبد الشر عن نفسه ، ويتخلق بأحسن الصفات بطبيعة الحال . وكل هذا سيدفعه إلى الجمال التام ، والكمال الذى ليس بعده كمال ، ثم تختفى صفاته رويداً رويداً ويتم اتحاده مع الله .

والجنة هي فرط السرور بالاتحاد مع الله أو القرب منه ، والنار هي الألم المنبعث نتيجة الانفصال عنه أو البعد عنه ، ويرحب الصوفى بما يلاقه من عناء وسوء حظ لاعتقاده أن هذا كله من المحبوب .

الشيخ والمريد :

. ولتحقيق الاتحاد مع المحبوب يلزم أن ينهج الإنسان نهج ذلك المحبوب ، وأن يحاول أن يلتحل صفاته ويتخلق بها ، وللوصول إلى هذه الغاية يحتاج المريد إلى قائد بوجهه ، وتكون طاعة المريد لفائدة شاملة وواجبة ، والطريق إلى الحب لا يخضع للمنطق والأسباب والمسببات العامة . ولهذا لا يثار سؤال عن وصل أو تأخر في الوصول ، ومع هذا فالقائد غير الصالح يضل المريد بدل أن يصل به ، ولذلك لزم أن يعنى المريد عناية كاملة باختيار شيخه ومرشده .

وكلما قربت أخلاق الإنسان من الكمال زاد قربه من الله ، فإذا تم تخلقه بصفات الله وإعانت صفات الله في الإنسان ، وأحكم الامتزاج بها ، أصبح الإنسان في وحدة مع الله ، وصار مظهراً من مظاهره .

أما الصوفية الذين قالوا بتوحيد الله وأنه خالق العالم فلم يقولوا بالاتحاد به ، ولكنهم قالوا بالفيض من الله أو بالقرب منه ، وقرروا أن الصوفي إذا انعزل عن إرادته الخاصة ، أو ذهل من فرط السرور الحاصل من زيادة القرب وصل محيط دائرة الله وغمرته الصلة به ، فخلا من كل شيء وتفرغ له ، وتعرف هذه اللحظة عند هؤلاء الصوفية بلحظة الوصول أو الفناء ، ويكون الصوفي خلالها — على الرغم من أنه يبدو مذهولاً — يقظ العقل والضمير والروح ، فإذا بدا للناس فاقداً حواسه فإنه عند نفسه لم يفقدها بل يصير في حالة أسمى وأروع ، وكل ما حدث له هو أن هذه الحواس أصبحت — لفيض الصلة — كالنور المنبعث من النجوم إذا أشرقت الشمس ، فإن هذه

النجوم ، وإن ظلت في المواقع المتألفة إلا أن وهج الشمس يحجبها عن
العيون أو يحجب العيون عنها ، وسرعان ما تنتهي هذه اللحظات ويعود
الصوفي إلى حالته الطبيعية .

تأثير التصوف الإسلامي وتأثيره في الشرق والغرب :

وقد سبق القول إن التصوف الإسلامي تأثر باتجاهات غير إسلامية ،
وذكرنا منها الثقافة الهندوكية والبوذية ، ويوضح جولدزهر أن بعض
الاصطلاحات التي عرفت في التصوف الإسلامي قد وردت للتفكير
الإسلامي من هذه الثقافات ، وذلك مثل الفناء ، والطريقة ، والمراقبة
والكرامة ، وإذا كانت الهندوكية قد أثرت بعض الشيء في التصوف
الإسلامي ، فإن التصوف الإسلامي كان بدوره عميق التأثير في الحياة الهندية
وكان كذلك متعدد الجوانب ، فقد تسربت بقصد أو بدون قصد أفكار
هامة من التصوف الإسلامي إلى الفلاسفة الهنود وإلى الزعماء الروحيين بالهند
وعن طريق هؤلاء وصلت هذه الأفكار إلى الجماهير الهندية ، وعن ذلك
يقول Ramaswami Sastri (راما سوامي ساستري) :

إن تأثير التصوف الإسلامي في الفكر الهندي جدير بالذكر ، فقد تسلسل
بهدهو ويسر إلى الهند حتى وصل إلى كل عقل واختلط بكل لب ، وقد
تأثرت الأفكار الدينية في الهند بالعقائد الصوفية الهامة كالاتحاد ، ومجد الله ،
والأنحوة الإنسانية ، والحب .

وقد درس الدكتور Tara Chand هذا الموضوع دراسة أوسع وأشمل
في كتابه :

Influence of Islam on Indian Culture

ومنه نقتبس الفقرات التالية (١) :

« إن الاتجاه للتوحيد الذى ظهر واضحاً فى جنوب الهند لم يظهر إلا بقوة دفع قاهرة ، كان مصدرها التفكير الذى لا يقبل مساومة فى مسألة وحدانية الله ، وهو التفكير الإسلامى .

« ولقد ولد القديس Sankara فى الفترة التى بدأ المسلمون فيها نشاطهم الدينى بالهند ، وقد صادف المسلمون آنذاك نجاحاً ملحوظاً . إذ استطاعوا أن يقنعوا سلطان هذه المنطقة باعتراف الإسلام ، وكانت نشأة Ssnkara فى مكان ساحلى ، حيث كانت ترسو السفن التجارية القادمة من بلاد فارس ، فإذا كانت دعوته القوية للوحدانية بين القائلين بالتعدد ، ومحاولته أن يفرض التوحيد فى شرحه للكتاب المقدس ، ورغبته أن يطهر الصلوات مما بها من تقاليد تحالف اتجاهه ، إذا كان ذلك صدى للآراء الدينية الإسلامية فإن هذا لا يدعو للدهشة أو الريبة .

« وخلفاء Sankara وهم Ramanuia و Vianuswami و Madhava و Nimbaraka ، والذين يتلون التراتيل ، كل هؤلاء كانوا قريبي الشبه بالمسلمين فى تأملاتهم وأنغام ترانيلهم .

« وفى عهد Ramanuia كثر المسلمون فى موافى شاطئ كوروموندل ، وكان الدعاة المسلمون من أمثال Nathad Vali يدعون الناس للإسلام ويجذبون بعضهم لاعتناقه ، وفى نفس الوقت كان الملوكة الهنادكة مثل Kun—Pandya يمنحون الأرض لشُقام عليها المساجد .

« وقد أفصحَت فلسفة Ramānuja عن الاعتراف بإله واحد موصوف بأكرم الصفات ، يطلب أن يعبد بِلِيمان وإخلاص ، وعرض Ramanula أن يفتح أبواب الدين لكل الطبقات حتى للطبقة التي ما كانت تفتح لها أبواب الأديان كالمنبوذين .

« والحب الذى تكلم عنه الصوفية المسلمون وجد طريقه للفكر الهندى ولم يكن مقصوراً على حب الإنسان لله ، بل امتد إلى حب الإنسان للإنسان وكان القديسيون الهنود الذين ذكرنا أسماءهم آنفاً عندما يشيرون المناقشات العقلية التي تتصل بطبيعة الإله يستعملون نفس الحوار الذى أُثير عن النظام والأشعرى والغزالى .

« وحفلت الأفكار الدينية بجنوب الهند ابتداء من القرن التاسع الميلادى باتجاهات تشير كلها إلى نفوذ الفكر الإسلامى ، وأهم هذه الاتجاهات التوحيد ، وبروز العاطفة والانفعال فى العبادات ، والاستسلام للشيوخ المعلمين واحترامهم احتراماً يصل للعشق أو التقديس ، وبجانب ذلك وضع فى الاتجاهات الدينية الهندية تساهل كبير فى نظام الطبقات ، وتطور ظاهر فى الطقوس الدينية » .

وامتد نفوذ التصوف الإسلامى بشكل أوضح وأعمق فى شمال الهند ، فظهر فى علماء الدين هناك أمثال Dadu و Nanak و Ramananda و Kabir و Birbhan و Baba Lal وكثيرون سواهم ، ومثل ذلك التأثير ظهر أيضاً فى البنغال ، ودان به Namdev و Maharashtra من مشاهير القديسين

ولم يمتد نفوذ التصوف الإسلامى إلى الشرق فقط بل امتد كذلك إلى

الغرب فظهرت أصباغ التصوف الإسلامى واضحة فى التصوف الأوروبى ،
وقد كتب المستشرق الأسباني Migvel Asim فى كتابه :

Islam And the Divine Comedy

(الإسلام والكوميديا الإلهية) أن دانتي (Dante) مدين فى أكثر ما
كتبه عن اليوم الآخر فى روايه الكوميديا الإلهية The Divine Comedy
إلى ابن عربى . وقرر الأستاذ الدكتور أرثر أربرى فى كتابه « تاريخ
التصوف » أن من المستحيل أن تقرأ أشعار St—Jobn المتصوف الأسباني
دون أن تعلن أن طريقة تفكيره واتجاه خيالاته ترجع كلها إلى الصوفية
المسلمين الذين كانوا مواطنين بأسبانيا وتركوا بها هذا التراث .

ويعلق الدكتور أربرى على ما كتبه Raymond Hull عن التصوف
فى القرن الرابع عشر ، فيقرر أن هذا الكاتب كان يجيد اللغة العربية ، وقد
افتتح مدرسة للغات الشرقية فى روما ، وإجادته للغة العربية مكنته من
الاتصال بالتصوف الإسلامى ، فجاء كتابه عن التصوف عميق التأثير — دون
شك — بالتفكير الصوفى الإسلامى ، وحَمَلَ هذا الكتاب مع غيره اتجاهات
المسلمين الصوفية إلى أوروبا .

وبعد بضعة قرون صار الشعر الصوفى الفارسى عميق التأثير على عباقرة
المفكرين الغربيين كجوته وسواه وليس ذلك التأثير محتاجاً إلى دليل .

٣ - الفلاسفة

نجى الآن للمدرسة الصكرية الأخيرة عند المسلمين وهي مدرسة الفلاسفة ، ويمكن القول بحق إن الفلاسفة المسلمين أحيوا حكمة اليونان وعلومهم بعد أن شملها الموت أو كاد ، وعن طريقهم وصل التراث اليوناني إلى الشرق وإلى الغرب ، وأشهر الفلاسفة المسلمين الكندي (٨٧٣ م) والفارابي (٩٥٠ م) وابن مسكويه (١٠٣٠ م) وابن سينا (١٠٣٧ م) وابن الهيثم (١٠٣٩ م) وابن باجة (١١٣٨ م) وابن طفيل (١١٨٥ م) وابن رشد (١١٩٨ م) .

ولم يقصر أكثر هؤلاء دراستهم وكتاباتهم عن الفلسفة ، بل كتبوا في موضوعات كثيرة غيرها كما فعل المتكلمون ، فالكندي مثلاً كتب في علم الفلك والهندسة والتنجيم والحساب والموسيقى والطبيعات وعلم النفس وعلم الظواهر الجوية وعلوم السياسة ، وكتب ابن سينا في اللاهوت والرياضيات والفلك والطب والسياسة والحيوان والنبات ، وكتب ابن رشد في الفقه والطبيعات والفلك والطب .

وعلى العموم فقد كان جل ما عني به الفلاسفة المسلمون أول الأمر هو التوفيق بين التفكير الإسلامي وبين فلسفة أرسطو والأفلاطونية الحديثة ، ومحاولة خلق فلسفة تلتقي فيها هذه العناصر ، وتزعم الكندي والفارابي وابن سينا هذا الاتجاه مع اختلاف في ميول هؤلاء ؛ فالفارابي مثلاً كان أكثر ميلاً لفلسفة أرسطو ، ومال ابن سينا للأفلاطونية الحديثة ولم يشمر هذا الاتجاه الثمرة المرجوة ، فعدل عنه الفلاسفة المتأخرون واتجهوا إلى عزل الدراسات اللاهوتية عن الدراسات الفلسفية .

ومصدر المعرفة عند الفلاسفة هو العقل والوحي جميعاً .

وفيما يلي دراسة موجزة لأهم الفلاسفة المسلمين ولآرائهم :

الكندى

٢٦٠ هـ = ٨٧٣ م

يعرف الكندي بأنه دائرة معارف ، لكثرة الموضوعات التي كتب فيها والكتب التي دونها ، فيروى أنه كتب ٢٥٦ كتاباً في عدة موضوعات والكندي أول فيلسوف رأى ضرورة الاستعانة بالرياضيات في حل المسائل الفلسفية ، وينسب إلى ديكارت خطأ أنه كان أول من اتجه هذا الاتجاه ، وقد كتب الكندي كتاباً كاملاً ليبرهن على صحة هذه النظرية ، ولكن تطبيقه لهذه النظرية فسد لسوء الحظ بسبب نفوذ المدرسة الفيثاغورية .

وللكندي كتاب في علم البصريات يعتبر عمدة في موضوعه ، وقد كان مرجعاً هاماً للباحثين في هذا العلم بالشرق والغرب على السواء ، وقد أبدى بيكون (Roger Bacon) وكاردان (Cardanus) عظيم الاهتمام بأبحاث الكندي وأفكاره ، ووافقه كاردان على قوله بوحدة العالم وارتباطه ، بحيث أننا لو عرفنا جزءاً منه معرفة تامة كان لنا منه مرآة ينعكس فيها العالم كله فتحصل لنا معرفة بالجميع .

نظرية الكندي في المعرفة :

وللكندي في المعرفة نظرية لا تزال مدرسة كانت (Kant) تعنى بها حتى الآن ، فهو يرى أن مصادر المعرفة هي الحواس والعقل والخيال ، فالحواس تدرك الجزئيات والصورة المادية ، والعقل يدرك الكليات والصورة

العقلية ، أما الخيال فوسط بين الاثنين ، أى أنه يدرك الجزئيات الكلية (The Universal Particular) وقد كان يظن حتى عهد قريب أن (كانت ١٨٠٤ م) هو الذى جعل الخيال وسطا بين الخواص والعقل ، ثم ثبت أن فلاسفة آخرين سبقوا (كانت) فى تقرير هذه المسألة ، وهؤلاء الفلاسفة هم :

(١٧١٩ م) Addison

(١٧٥٠ م) Muraturi

(١٧٨٢ م) Lord Kames

ولكن الحقيقة أنه لا (كانت) ولا هؤلاء الفلاسفة هم الذين ابتكروا هذه المسألة ، بل يرجع الفضل فى ابتكارها إلى الكندى الذى عاش قبل (كانت) بحوالى تسعة قرون .

الفارابى

٣٣٩ هـ = ٩٥٠ م

أعظم فيلسوف مسلم ، لم يصل إلى مكانته فى الفلسفة الإسلامية أى فيلسوف آخر ، ولهذا عرف فى تاريخ الفكر بأنه « المعلم الثانى » أما المعلم الأول فهو أرسطو . ويعترف المفكرون المتأخرون بأنهم مدينون له فيما وصلوا إليه من علم ومعرفة ، وأثره واضح تمام الوضوح فى أفكار ابن سينا وابن رشد ، ويقول Carra de Vaux : إن منطق الفارابى كان عظيم التأثير على الباحثين الأوربيين الذين عنوا بالمنطق .

وقد كتب الفارابى أكثر من مائة كتاب نصفها تقريباً نقد وشروح

وتعليقات على أبحاث أرسطو ، وأما الباقي فدراسات مبتكرة ، وهناك حوالى خمسة وعشرين كتاباً من كتب الفارابى لا تزال مخطوطة أو مدونة فى رقاع .

والفارابى زعيم أصحاب المنطق ، وهم أصحاب ما وراء الطبيعة ، وسمى هؤلاء بأصحاب المنطق لأنهم ساروا سيرتهم فى استنباط الأشياء من أصولها على طريقة برهانية دقيقة ، وذلك بوضع القواعد الكلية والاستنباط منها بالبرهان .

ومدرسة الفارابى هذه تختلف عن مدرسة الطبيعيين الذين يوجهون اهتمامهم إلى دراسة ما فى الطبيعة من ظواهر مادية ، فإذا تكلموا عن الله تكلموا عنه كصانع خالق أو كما يسمونه العلة الأولى ، أما الفلاسفة المنطقيون فيتكلمون عن ماهيات الأشياء وحقائقها من أدناها إلى ذات الله ، وإذا تكلموا عن الله تكلموا عنه كموجود واجب الوجود .

فالمنطق عند الفارابى ليس وسيلة لإدراك المعرفة ، وإنما هو الحصول على المعرفة ، وهو ليس طريقاً لإدراك الحقائق ، وإنما هو نفس إدراك الحقائق .

برهان الفارابى للتدليل على وجود الله :

وقد أضاف الفارابى وتبعه ابن سينا برهاناً جديداً للتدليل على وجود الله ، وقد بُنى هذا البرهان على فكرة الممكن والواجب ، فقال إن كل موجود إما ممكن الوجود أو واجب الوجود ، وممكن الوجود لا بد من علة تتقدم عليه ترجّح وجوده وتقرّره وتخرجه إلى الوجود ، والعلل هذه لا يمكن أن تتسلسل إلى مالا نهاية بل لا بد أن تنتهى إلى موجود واجب الوجود لا علة لوجوده . وقد أخذ الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون هذا الدليل عن

ابن سينا ، وعن ابن ميمون أخذه القديس توماس الأكويني ، وسار في الغرب حتى تدارسه الفيلسوف (كانت) .

والفارابي أول من قال بأن الحركة ظاهرة لا تفارق الأجسام ، فهي جزء لا يختلف عنها ، وتلك النظرية جعلت الفارابي ذا صلة وثيقة بالدراسات الفاسفية الحديثة ، ويفرق الفارابي بين الذات والوجود ، وقد كان لهذا الرأي أثر كبير في فلسفة الشرق والغرب ، فوجود شيء - تبعاً لرأي الفارابي - ليس إلا الشيء نفسه ، ولهذا لا يصحح أن يسند إليه لأن المسندات عامة شاملة ، والوجود خاص ، وبهذا يختلف الوجود عن الذات .

وقد وضع الفارابي ما يمكن أن يسمى « أول دائرة معارف » بكتابه « إحصاء العلوم » الذي يراه الأستاذ مصطفى عبد الرزاق أول موسوعة وضعت في العالم .

ابن مسكويه(*)

٤٢٢ هـ = ١٠٣٠ م

كان ابن مسكويه طبيباً وفيلسوفاً ومؤرخاً ، ومن آرائه الفلسفية في ماهية النفس أن النفس جوهر بسيط لا نحسّه بالحواس ، وأنها ليست جسماً ولا جزءاً من جسم ، بدليل أنها تقبل الصور المتناقضة كالبياض والسواد في وقت واحد بخلاف الأجسام ، والنفس كذلك تقبل صور المحسوسات والمعقولات على السواء ، وعلى هذا فمعارف النفس ووسائلها للمعرفة أفسح

(*) اسمه مسكويه واسم جده مسكويه كذلك. ولهذا يقال له مسكويه وابن مسكويه

وأعق من الجسم ، وفي النفس معرفة عقلية أولية لا تصل لها عن طريق الجسم ؛ كما أنها تستطيع أن تميز المعارف التي ترد إليها عن طريق الحواس فتدركه الصحيح منها والخطأ ، وذلك عن طريق المقارنة بين المدركات الحسية ، فهي بهذا تشرف على عمل الحواس وتصحيح خطأها . وللنفس وحدة روحية تجعلها تعلم أنها تعلم ، وهي وحدة تقرر أن الذي يعقل والذي يُعقل شيء واحد (١) .

نظرياته الخلقية :

وأهم ما عرف به ابن مسكويه نظرياته الخلقية وسعيه ليحصل الإنسان على الخلق الجميل عن طريق تعليمي يعرف به ماهية النفس واتجاهاتها ، ثم نظريته عن النشوء والارتقاء ، وسنورد بعض التفاصيل التي توضح لنا فلسفات هذا الباحث الكبير .

الأخلاق عند ابن مسكويه :

والأخلاق في نظر ابن مسكويه هي ما يلائم المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان ، ولا يستطيع الإنسان إذا تُرك وحده أن يعرف الأخلاق الطيبة جميعها والإنسان مندفع بطبعه إلى الحياة الاجتماعية ، والحياة الاجتماعية تستوجب الأُنس ، ومنه سمي الإنسان إنسي لأنه يأنس بالاجتماع ويحس بوحشة إذا كان وحيداً . والحياة الاجتماعية تستلزم التعاون بين الناس والتعاطف والحب . وعلى هذا فالفضيلة الرئيسية التي يلزم أن يعتنقها الإنسان وينميها هي فضيلة الحب للجنس البشري .

(١) انظر كتاب تهذيب الأخلاق لابن مسكويه في صفحاته الأولى .

الصدقة بين الأنانية والإيثار :

ويختلف ابن مسكويه مع أرسطو في تحديد هدف الصدقة ، فأرسطو يرى أن الصدقة امتداد لحب الإنسان لنفسه ، ويرى ابن مسكويه أنها تضيق لدائرة حب الذات ، فأرسطو يراها أنانية لأن الإنسان تزيد سعادته بحبه للآخرين ، لأن الأصدقاء يحبون الإنسان ، فالصدقة ستحيط الإنسان بقلوب تحبه وتعمل لإسعاده ، ويراه ابن مسكويه إيثاراً لأنها توجه بعض غريزة الحب إلى الناس بدلاً من أن يركزها الإنسان في نفسه ، ومن الواضح أن الصدقة كما عناه أرسطو نفعية . ولكنها عند ابن مسكويه لذة ذاتية .

هدف الأديان عند ابن مسكويه :

ويرى ابن مسكويه أن الهدف الرئيسي للأديان هو بعث الأخلاق الطيبة ، وهذا لا يتم إلا بالاعتقاد بأن الدين رياضة خلقية للنفوس ، أو بالاعتقاد بأن غاية الشعائر الدينية كصلاة الجمعة والجماعة وكالصوم والحج ليس إلا غرس الفضائل الاجتماعية وأولها الحب في نفوس الناس ، وإذا فهمنا ذلك أدركنا أن الناسك الذي يعتزل الناس ويدعى أنه يعبد الله في خلوة ، هاربٌ من المجتمع قليل الفهم للفكر الإسلامى .

الخير قرب من الله :

ويرى ابن مسكويه أن الإنسان وهو يفعل الخير يتجه إلى الله ويقرب منه ، لأن الله هو الخير المطلق ، وكلما قوى جانب الخير في الإنسان كلما قرب من الخير المطلق الذى هو الموجود الأعظم .

نظرية النشوء والارتقاء عند المفكرين المسلمين :

أما نظرية النشوء والارتقاء فإن مسكويه ومعاصره ابن سينا قد طوروا النظرية التي قال بها قبلهما لإخوان الصفا ، وجاء بعد ذلك ابن خلدون الفيلسوف المؤرخ ، والرومي الفيلسوف الشاعر ، فسارا في نفس الطريقة ، وزادا المسألة شرحاً ودراسة .

ويمكن القول في إيجاز ويقين إن ابن مسكويه يقرر في نظرية النشوء والارتقاء نفس النظرية التي قررها داروين بعده بتسعة قرون ، ويوجز الشبلي في كتابه « علم الكلام » تلك النظرية كما قال بها ابن مسكويه فيقول :

إن امتزاج العناصر الكونية أنتج مملكة الجماد ، وهي أقدم مملكة وجدت في تاريخ الكون ، وهي كذلك أحط الممالك .

وخطا الكون خطوة إلى الأمام حيث ظهرت مملكة النبات مبتدئة بالحشائش ثم بالأعشاب فالأشجار ، وتستمر هذه المملكة قرونًا وقرونًا ، ثم بدت وهي في طريقها إلى المرحلة التالية ، مرحلة الحيوان ، تقرب رويداً رويداً من المملكة الحيوانية ، فظهرت أشجار لها صفات قريبة الشبه بصفات الحيوان ، ثم جاءت فترة يبدو أنها طويلة بين مملكتي النبات والحيوان ليس من السهل أن تحسب من هذه أو تلك ، لأن بعض عناصرها كالمرجان لها خصائص من المملكتين .

وبعد هذه الفترة تُطِلُّ على الكون مملكة الحيوان ، وهي تبدأ بسيطة ساذجة حيث ظهر كائن ضئيل له قدرة على الحركة وبه شيء من الإحساس ذلك هو الديدان الصغيرة ، وقد تطور هذا الكائن رويداً رويداً حتى

ظهر الحيوان الذى لوحظ به جانب من الذكاء ، وقد مر الكون خلال ذلك بقرون وقرون .

ويستعد الكون للوصول إلى أرقى مملكة عرفها ، وهى مملكة الإنسان ، الذى يظهر ليكون قمة خلق الله سبحانه وتعالى ، الذى أكرمه الله وسخر له أعظم مخلوقاته كما جاء ذلك فى القرآن الكريم .

وفى قصيدة للرومى المسماة المثنوى (١) وصف لهذه الأطوار التى مر بها الإنسان وهناك ترجمتها :

لقد ظهر أول إنسان على الأرض كائناً غير عضوى
ثم تطور إلى نبات حيث عاش قروناً وقروناً
ولم يتذكر الإنسان وهو نبات أيامه قبل ذلك
وعَبَرَ الإنسان حقبة النبات متجهاً إلى مملكة الحيوان
ومرة أخرى نسي أنه عاش فترة وهو نبات
ولم يبق فى نفسه إلا بقايا قد لا يدرك كنهها
بقايا توجّه حبه نحو عالم النبات
وبخاصة فى مطلع الربيع حيث تستميله الأزهار
وليس ذلك إلا كميل الطفل إلى أمه
يلتمس - دون وعى - ثديها وينال منه
وانتقل الإنسان من عالم الحيوان إلى عالم البشر
حيث الفطنة والفكر السليم والعلم والإرادة
ونسى مرة أخرى التربة التى منها انبعث
وسيتطور الإنسان مرة أخرى إلى طور جديد

ويرى الفكر الإسلامى أن التطور لم يكن انتقال الشئ من حال إلى حال ، بل إنه كان من صنع الله الذى خلق العالم على هذا النسق مرحلة إثر مرحلة .

(١) قصيدة طويلة فى التصوف تكلمنا عنها فيما سبق

ابن سينا

أول ما نتناوله بالبحث متصلاً بابن سينا هو موضوع النشوء والارتقاء الذى تناولناه آنفاً متصلاً بابن مسكويه والروى ، ولابن سينا فى هذا الموضوع رأى قبله جميع الصوفية بما فيهم الروى نفسه ، ولم يقل ابن سينا بمبدأ دارون الذى يقرر أن صراعاً حدث فى الكون من أجل البقاء ، وقد سلم فى هذا الصراع خلاصة استطاعت أن تتفاعل مع البيئة وتنسجم معها ، وإنما قرر ابن سينا مبدأ الصراع من أجل التطور الذاتى والرغبة فى الوصول إلى المثالية . فكل شئ فى العالم ناقص ، ولهذا فكل شئ يعمل للكمال وتحاشى النقص ، وهذا الصراع من أجل الكمال يسمى « الحب » وهو سر التطور والنمو ، أما الكمال المقصود أو الهدف المرجو فيسمى الجمال ، والعالم كله مدفوع بقوة الحب تجاه الجمال السامى وجمال الموجود الأعظم ، وهو غاية الجمال وقته ، ويمر الكائن - وهو فى طريقه للكمال مدفوعاً بالحب - بمراحل متعددة هى الحجرية فالنباتية فالحيوانية فالإنسانية ، وفى مرحلة قادمة من مراحل الصراع سيصل الكائن إلى درجة أسمى من درجة الإنسانية لا نستطيع الآن تحديد كمها .

وليست نظرية ابن سينا هذه إلا سبقاً رائعاً امتزج بطابع الخيال الشرقى للنظرية الحديثة عن الارتقاء الضرورى الذى يحدث فى الكون دائماً .

وابن سينا أعظم فيلسوف فى الإسلام ، وفلسفته مزيج من فلسفة أرسطو وآراء الأفلاطونية الحديثة ، ويعتبر كتابه « الشفاء » دائرة معارف عظيمة تشمل دراسات فى الطب والفلسفة العقلية والرياضية ، ويقع هذا المؤلف فى ثمانية عشر جزءاً ، وقد طبع فى ليدن سنة ١٨٩٢ .

وفلسفة ابن سينا العقلية تقرر أن كل شيء معتمد في وجوده على علة فهو ممكن ، إذ لو لم توجد العلة لم يوجد الشيء ، فوجوده يصبح ضرورياً فقط مع وجود العلة ، وهذا يقودنا إلى ضرورة الاعتقاد بواجب وجود لا يحتاج إلى علة توجده ، وهو الذى يخلق العلة التى يوجد بسببها كل شيء ، وواجب الوجود هذا هو الله ، وقد تبع ابن سينا نهج الفارابى في هذا الاتجاه ، ثم سار على هذا النهج كثيرون بعد ابن سينا وفي مقدمتهم موسى بن ميمون واسبينوزا ، وواحى الوجود منزّه عن الكثرة ، فهو واحد لا كثرة في ذاته ، وتضاف إليه صفات ولكن بحيث لا تتعارض مع وحدة الذات .

وكل الموجودات كانت موجودة في عقل الله (!!) قبل أن توجد . وهى تصدر عنه ، فيتكون العالم كما يتجمع ماء النهر من قطرات ماء تتدافع من نافورة ، ولكل شيء لحظة لوجوده ، ولكن توالى هذه اللحظات يجعل التدفق يبدو كأنه متصل .

وبصل ابن سينا إلى المنطق بأن يقرر أن الوجود إما عقلى مفارق وهو موضوع ما بعد الطبيعة ، وإما مادى محسوس وهو موضوع الطبيعة ، وإما ذهنى متصور وهو موضوع المنطق ، وموضوع ما وراء الطبيعة منزّه عن المادة ، وموضوع الطبيعة لا يتصور بدون المادة ، وموضوع المنطق منتزع من المادة بطريق التجريد ، وهى أمور قد تتخالط المادة وقد لا تتخالطها كالوحدة والكثرة ، والكلى والجزئى .

وضرورة المنطق منشؤها نقص العقل الإنسانى ، وضرورة الحصول على المجهول من العلوم . وعلى هذا يلزم أن تتجه الجهود لتقوية المنطق حتى

يساعد في الحصول على العلم الصحيح ، ويحرس الفكر من الانحراف ، وكما أن قواعد اللغة وسيلة للحصول على لغة سليمة ، فالمنطق وسيلة للحصول على فكر سليم . غير أن المنطق ليس دائماً ضرورياً ، بل هناك أناس يؤيدون بوحى إلهى يستطيعون أن يصلوا إلى المجهول بدون المنطق ، وهؤلاء هم الأنبياء ، وهم يشبهون البدو الذين لا يحتاجون للقواعد لعصمة ألسنتهم من الخطأ في الكلام .

ورأى ابن سينا ، وهو رأى الغزالي بعده ورأى (كانت) فى العصر الحديث ، أن المقولات موضوعية وأن المعرفة مصدرها مزيج من الإحساس والمنطق .

وفى الحقيقة أن مدرسة (كانت) فى هذا تتبع رأياً شاع عند المسلمين فى القرن الثانى عشر ، ولم يقل به ابن سينا والغزالي وحدهما بل قال به أيضاً ابن الهيثم الذى زادت شهرته فى طب العيون ، والبيرونى (١٠٤٨ م) الذى اشتهر بالرياضيات والفلك والجغرافيا .

وابن سينا كعالم من علماء النفس قال بأن للمخ مكاناً محدداً ، وفى مطلع القرن العشرين كان هذا الاتجاه غير مؤكد عند الباحثين الأوربيين ، ولم يثبت لهم إلا بعد ذلك ، وابن سينا — كباحث فى الأخلاق — رأى ، مخالفاً فى ذلك أرسطو ، أن الفضائل الخلقية أسمى من الفضائل العقلية .

وسمعة ابن سينا كفيلسوف وطبيب تألفت فى الغرب عدة قرون ، وقد ترجمت أكثر كتبه إلى العبرية واللاتينية قبل نهاية القرن الثانى عشر ، وقد درس روجر بيكون كتاب «الفلسفة الشرقية» الذى وضعه ابن سينا ، ولم يصل

لنا هذا الكتاب ، وقد وضع ابن سينا تقسيماً للعلوم الفلسفية ، فأصبح هذا التقسيم مناط الدراسات الفلسفية بأوروبا طوال القرون الوسطى ، وفضله الباحثون على كل ما عداه .

ولابن سينا تلاميذ من الغرب ساروا على نهجه وتأثروا به ، ومن هؤلاء الفيلسوف اليهودى ابن ميمون ، والبرت العظيم الذى عاصر القديس توماس ، وتلميذ البرت Ulrich of srasburg وقد اعتبره موسى ابن ميمون أعظم شراح أرسطو ، واعتنق القديس توماس رأى ابن سينا فى طبيعة الكون ، وكان له على العموم تأثير قوى على أكثر الفلاسفة المسيحيين واعتبره مشاهيرهم فى عداد المفكرين العالمين ، فدانتى يضعه بين أبقرراط وجالينوس ، وسكاليجر (Scaliger) يرى أنه نداء جالينوس فى الطب ومتفوق عليه فى الفلسفة ، وأكثر آراء اسبينوزا كقوله بأن الله فكرٌ وأنه عقلٌ وأنه واضحٌ عالمٌ علماً أزلياً . . . ترجع إلى ابن سينا ، وقد نقلت آراء ابن سينا إلى الفلاسفة المتأخرين فى الغرب خلال أبحاث الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون .

ابن الهيثم

٤٣١ هـ = ١٠٣٩ م

ابن الهيثم فيلسوف مشهور من مدرسة أرسطو الفلسفية ، وهو كعاصريه ابن سينا والبيرونى سبق (كانت Kant) بحوالى سبعة قرون فى تقرير النظرية التى نسبت خطأ للأخير ، وهى أن الوصول إلى الحق لا يكون إلا من آراء عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية . وابن الهيثم يوافق

أرسطو بل يمجده لأنه — في رأى ابن الهيثم — كان أحسن من عرف كيف يربط الإحساسات ويوحد بينها لتصير معرفة عقلية .

ووصل ابن الهيثم كذلك إلى فكرة لم يعرفها الغرب إلا في القرن الماضي ، وخلاصتها أن الإدراك يتركب من الإحساس ، ومن مقارنة الإحساس الناشئ حديثاً ، بالصورة المرسومة بالذاكرة عن الإحساسات السابقة المماثلة . ثم الحكم بمطابقة الإحساس الجديد للصورة الذهنية سالفة الذكر .

ابتكارات تتصل بالسينما والأفلام :

وفيما يتصل بعلم النفس فقد اكتشف ابن الهيثم قانوناً عظيم الأهمية وهو أن الأحاسيس التى يتلو بعضها بعضاً ، فى تتابع منتظم تكون إحساساً متصلاً ، وعندما أعيد اكتشاف هذا القانون فى العصر الحديث أمكن ابتكار السينما لأن الفيلم ليس إلا صوراً متتابعة تخدع الرأى فتبدو صورة واحدة . ولو أن الطريقة الكيماوية الخاصة بالتحميم وجدت فى العهود الماضية لأمكن للعصور الوسطى أن تشاهد الأفلام السينمائية .

ابن باجه

٥٣٣ هـ = ١١٣٨ م

يتضح من اتجاهات الفارابى وابن سينا أن دراستهما الفلسفية بها ميول صوفية ، أما ابن ماجه فإنه مع كونه من مريدى الفارابى لم يتجه إلى التصوف فى دراسة الفلسفة ، بل على العكس من ذلك ثار ثورة عارمة ضد التصوف

والمتصوفين وأعلن أن التصوف بما فيه من صبور حسية يحجب الحقيقة أكثر مما يكشفها ، وأن ما قاله الصوفية من أن الحقيقة تأتي للإنسان عن طريق نور يقذفه الله في القلب . وأنها تكسب الإنسان السعادة . كلُّ هذا وهم يلزم طرحه ، والطريق الصحيح لمعرفة الحقيقة هو النظر الفلسفي الذي لا تشوبه لذه حسية .

وأعلن ابن باجة أن من الصعب على الفيلسوف أن يرتفع بدراساته وتفكيره أو يعلن نتائج أبحاثه في مجتمع جاهل بالفلسفة متعصب تعصباً أعمى في أمور الدين ، ولذلك يقترح ما يسمى بالمفكر الموحد ، وهو أن تعيش طائفة صغيرة من المفكرين وحدهم . كأنهم دولة داخل الدولة ، فكأنهم نموذج للجماعة كما يجب أن تكون ، وفي رأيه أن الإنسان يستطيع أن يصل إلى قمة المعرفة بالتقدم الطبيعي الذي يبدأ بالتجارب الحسية ويصل إلى الفكر العقلي ، ويتحدث ابن باجة عن نفس الفرد ، ونفس الإنسانية ، ونفس الفرد عنده يمكن أن تخلد بناء على توافر خصال لها ، أما عقل الإنسانية كلها فأزلى بسبب اتحاده بالعقل الفعال وهو الله .

والموجودات عند ابن باجة قسمان : متحرك وغير متحرك ، والمتحرك تصدر حركته عن موجود أزلى هو العقل ، والجسم لا يستطيع الحياة بغير روح ولكن الروح تستطيع الحياة بغير الجسم ، ولهذا فإن الروح تعيش بعد سقوط الجسم ودفنه ، وتيسر سبل المعرفة للروح الطليقة التي تخلصت من ماديات الجسم ، وهؤلاء الذين يقنعون بالمظاهر الحسية سينتلعهم الفناء كما أن هذه المظاهر الحسية نفسها ستفنى ، أما الذين يهتمون بالأمور العقلية ويسيطر عليهم العقل في تصرفاتهم فإنهم سيصلون إلى المعرفة الحققة وسيكسبون الخلود ،

والنفس الفردية فانية ، لكن الروح وهى الجزء العاقل من النفس أزل
لأنه عام ، والذين يطورون أرواحهم يستطيعون الوصول للخلود ، وهؤلاء
الذين يصلون للمعرفة بالفكر الخالص يصلون إلى الحقيقة التى هى الله ،
وهم لا يصلون فقط إلى الله وإنما يتحدثون به .

وفلسفة ابن باجه كانت معروفة للباحثين الأوربيين وبخاصة البرت
ماجنوس والقديس توماس الأكويني .

ابن طفيل

٥٨١ هـ = ١١٨٥ م

ابن طفيل فيلسوف طبقت شهرته الآفاق مرتبطة بكتابه الرائع « حى
ابن يقظان » الذى يمثل قصة خيالية فلسفية يرمى إلى إثبات أن الإنسان يستطيع
أن يعرف الله ويتصل به ويفنى فيه بدون وحى وبدون معلم ، وقد ترجم
إدوارد بيكون هذه القصة الرائعة إلى اللغة اللاتينية ونشرت مع نصها العربى
فى أكسفورد سنة ١٦٧١ م ثم ترجمت بعد ذلك إلى أكثر اللغات الأوربية .
ويقول Prul Brenne عنها ما يلى : « ... وفى وقت قصير جذبت
هذه القصة شعور الجماهير ، وكانت كعاصفة أحس بها الناس جميعاً ،
وظلت مدة طويلة فى مكانة مرموقة » .

ولم يتوقف بعد اهتمام الناس بها فى مختلف الأقطار فقد ترجمت فى
القرن الحالى إلى اللغة الروسية سنة ١٩٢٠ وإلى اللغة الأسبانية سنة ١٩٣٤ م .

ولم يكتف الأروبيون بترجمتها بل ظهر من كتبهم من عمل على
تقليدها ، فمن المعروف أن George Keith ترجمها إلى الإنجليزية سنة

١٦٧٤ م ثم ترجمها إلى الإنجليزية أيضاً George Ashwell سنة ١٦٨٦ م
ثم Simon Ockley سنة ١٧٠٨ م ، وبعد هذه الترجمة بحوالى إحدى عشرة
سنة أخرج Daniel Defoe قصة « Robinson Crusoe » ومن الواضح
لدى كل الباحثين أن دانيال مدينٌ للفيلسوف المسلم ابن طفيل ، فإن عناصر
« حى بن يقظان » تظهر بوضوح فى رواية دانيال .

وقد كان ابن طفيل وزيراً للخليفة أبى يعقوب يوسف أشهر خلفاء
الموحدين كما كان كبير أطبائه ، وقد زكى الوزير للخليفة معاصره ابن رشد
آخر الفلاسفة الأعلام الذين ازدانت بهم أسبانيا ، ولا شك أن ابن رشد
كان أشهر معلم تلقى الأوروبيون عنه الفكر وتتلملوا لأفكاره عدة قرون ،
وقد آن لنا أن نتحدث عنه .

ابن رشد

٥٩٥ هـ = ١١٩٨ م

ابن رشد والدليل على وجود الله :

ابن رشد أعظم الفلاسفة المسلمين الذين انتهجوا نهج أرسطو وارتضوا
مدرسته (١) ، وهو أكثر الفلاسفة المسلمين تأثيراً فى الفكر الأوربي ،

(١) حاول ابن رشد كما حاول كثير من الفلاسفة المسلمين أن يوفقوا بين الفكر
الإسلامي وفلسفة اليونان ، ولكن محاولة ابن رشد كانت ترمي إلى هذا التوفيق على
حساب الأفكار اليونانية ، أى محاولة إخضاع آراء أرسطو إلى التفكير الإسلامي .

ويعتمد ابن رشد فى التدليل على وجود الله على الإحساس الذى تجيش به نفس الإنسان ، فهو يرى أن فى النفس حباً لله وشوقاً إليه ، وليس ذلك إلا دليلاً نظرياً على وجود الله ، ولو لم يكن هناك إله ما اشتاقت كل النفوس إليه ولما هتفت به من حين لآخر ، وتطلعت إليه فى الملمات .

ويوافق ابن رشد أرسطو فى دليل الحركة ، فيرى أن هذا العالم يتحرك حركة أبدية دائمة ، ولا بد أن هناك محركاً يحركه ولا يتحرك ، وهذا المحرك الأول هو الله ، ولا يوافق ابن رشد أرسطو فى قوله بأبدية حركة الأفلاك ، بل يرى ابن رشد أن الأفلاك وحركتها مخلوقة لله .

ومن الأدلة التى أوردها ابن رشد دليل العناية الإلهية ، وخلاصة هذا الدليل أن نظام الكون يدل دلالة واضحة على تناسق دقيق بين أجزائه ، وأن هذا التناسق مفيد للإنسان ، ولا يمكن أن يكون هذا التناسق قد حدث جزافاً ، بل من قوة حكيمة نظمته وخلقته وتشرف عليه .

ولم يقبل ابن رشد الدليل الذى ساقه الفارابى وابن سينا على وجود الله وقالوا فيه إن العالم جائز الحدود وكان من الممكن أن يوجد على نحو مغاير لما هو عليه الآن ، وأن الذى جعله على ما هو عليه واجب الوجود . وقال ابن رشد إن هذا الدليل لا يقوى على النقد العلمى ، إذ أن الحكمة اقتضت أن يوجد العالم على ما هو عليه .

ولابن رشد مجموعة من الأفكار عارضها المتكلمون فى الشرق والغرب معارضة شديدة ولكنها نالت تأييداً واسعاً وحماسة قوية من أحرار المفكرين فيما بين القرن الثانى عشر والرابع عشر ، وكانت دعامة قوية من الدعامات التى قام عليها صرح النهضة الأوروبية ، وهذه الأفكار هى :

- ١ - التفسير المجازى للقرآن الكريم .
- ٢ - نظرية الحقيقتين التى يقول ماكسونالد عنها إنها انتشرت بسرعة بين مفكرى أوربا كما تنتشر النار فى الهشيم .
- ٣ - القول بعقل هيولانى أزلى لا يعتريه الفناء وعقل جزئى حادث يفنى بفناء الإنسان .
- ٤ - الحكم بأبدية الهوى .
- ٥ - تحرير المرأة وإظهار حقوقها .

وسنتكلم بإيجاز عن كل من هذه الأفكار (١) :

١ - فيما يتعلق بالتفسير المجازى للقرآن أنجه ابن رشد وجهه ابن باجه وابن طفيل فقرر أن ما فى الكتاب المقدس حق ، وأن عموم الناس يلزم أن يؤمنوا به على ما يحمل ظاهره ، وأن يتخذوا منه دليلهم على وجود الله كما ورد فى آياته ، أما الفلاسفة فدليلهم على معرفة الله كل ما هو موجود ، وهم يستنبطون المجهول من المعلوم ، ويستعملون القياس والعقل والمنطق لمعرفة الله ، وذلك لا يضاد الشرع بل يساعده على الوصول للحق ، وإذا أدى النظر العقلى إلى ما يخالف ظاهر الشريعة كان للفلاسفة أن يؤولوا الشريعة وآيات القرآن ، فهم يفهمون مرأى القرآن ، ويدركون كنهه ، وليس للفلاسفة أن يقولوا للعامة من التأويل ما لا يستطيع هؤلاء فهمه وإدراكه .

(١) ترجمنا الفقرات التالية ببعض التصرف زيادة فى الإيضاح ، واعتمدنا على كتابى ابن رشد (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) و (الكشف عن مناهج الأدلة) .

ويدكر ابن رشد أنه يلزم أن يحث العلماء العامة على إتباع تعاليم الدين بأسلوب مادي هو التخويف بالعقاب أو الوعد بالثواب ، أما طبقة الحكماء فتقدم لهم الأسباب ومسبباتها ويطلب منهم عمل الخير لأنه خير ، والابتعاد عن الشر لأنه شر ، لا رغبة في ثواب ولا رهبة من عقاب .

٢ - والقضية السابقة دفعت ابن رشد إلى الفكرة الثانية أى إلى نظرية الحقيقتين أى إلى أن الدين شيء والفلسفة شيء آخر ، فأبحاث كل* تختلف عن أبحاث الآخر ، ولكل وسيلته في التعبير عن الحقيقة العامة والتدليل عليها ، وابن رشد مع تعظيمه للدين يرى أنه أحكام شرعية وليس مذاهب فلسفية ، ويعتقد أن في الشرع أدلة على الحقيقة العظمى تكفي الرجل العادى ، ولكن للفيلسوف أدلته ونظرياته التي تقنعه وتخفى في الوقت نفسه على غير الفيلسوف . ولهذا يرى من الأجدر بنا أن نزل الدين عن الفلسفة ويوافق على أن شيئاً قد يكون صحيحاً شرعاً وغير صحيح عقلاً وكذلك العكس ، فعالم الفلسفة يبنى على العلم ، وعالم الشريعة يبنى على الإقناع (١) .

٣ - ويمكن فهم مذهب ابن رشد في مسألة العقل الهولاني والعقل الفردي يلزم أن نعود إلى مذهب أرسطو ليتضح لنا الموضوع ، ففي مناقشة طبيعية الروح نرى اتجاه أرسطو عاماً ، فهو يفرق بين العقل القابل والعقل الفعال ، فالأول يبدأ مع الجسم ويفنى بفنائه ، أما الثاني فأساس مقدس يأتي للإنسان

(١) قلنا فيما سبق إن هذا الرأي عارضه المتكلمون واعتبروه انحرافاً من ابن رشد وقد دافع كثير من الباحثين المحدثين عن ابن رشد وشرحوا اتجاهه عما لا يخالف التفكير الإسلامي العام . (انظر ابن رشد الفيلسوف المفترى عليه للأستاذ الدكتور محمود قاسم .)

من الخارج ، وقد يطلق عليه العقل الهولاني ، ويعرف بأنه جوهر أزلي لا يعتريه الفناء ، له وجود مستقل في عالم المعقولات بخلاف العقل المنفعل وهو قدرة الإنسان على المعرفة العقلية فإنه يولد مع الشخص ويفنى بفنائه ، وهناك صلة بين العقليين في نفس الإنسان ، وليست هذه الصلة متساوية بين جميع الناس بل تتفاوت بمقدار استعداد النفس ليدفع لها العقل الفعّال الصور التي يدركها العقل القابل أو الفردى أو الجزئى ومن هنا يبدو التفاوت فيما نسميه الذكاء .

وابن رشد متأثر بهذا التفكير الأرسططاليسى إلى حد كبير وإن استعمل له طريقاً آخر ، فهو يرى أن العقل القابل أو عقل الإنسان ليس إلا جزءاً من العقل الفعّال اتخذ مكانه بصفة مؤقتة في جسم الإنسان ، أما العقل الفعّال فهو العقل العام للجنس البشرى ، وهذا العقل ليس شخصاً ، وهو غاية وهدف أزلي عام ، يشبه المشعل الذى ينير الطريق للنفس البشرية لتصل للحقيقة المقدسة ، وبواسطة هذا العقل ينال الفرد إشعاعه وإدراكه ، والصلة أو الاتحاد بين العقل العام والعقل الفردى (أو الروح العامة والروح الفردية) تتم تبعاً لمقدرة العقل الفردى .

وبموت الإنسان يفنى العقل الفردى (أو النفس الفردية) لأن هذا العقل قابل للموت ، أما العقل العام فأزلي خالد كما سبق ، والناس يموتون كأشخاص ولكنهم يخلدون بنسلهم وعقائدهم ففهم جانب من خلود العقل العام .

٤ — وفيما يتعلق بأصل الأشياء يرى ابن رشد رأياً يخالف به أتباع الأفلاطونية الحديثة ، فهو يرى أن الكون لم يكن فراغاً محتجاً ، بل مادة أزلية تحوى بذور كل العالم ، فخلق العالم لم يكن لإيجاداً من لا شىء ، بل كان

تحويلاً من الاحتمالية إلى الواقعية ، أو من القوة إلى الفعل ، وهذا التحويل يشمل المادة والصورة ، لأن الصورة والمادة (الهوى) مرتبطتان ولا يمكن انفصال إحداها عن الأخرى ، والصورة كلها من أدناها إلى أعلاها أى إلى الذات الإلهية تؤلف سلسلة من الصور متفاوتة الدرجات ، وفي قممها الصورة الإلهية التى هى صورة المحرك الأعظم ، وعلى هذا فعملية الخلق ليس فيها إيجاد شيء لم يكن موجوداً ، وإنما هى أن يظهر بالفعل ما كان موجوداً بالقوة .

٥ - وفى الحياة الاجتماعية ينصف ابن رشد المرأة ويدافع عن حقوقها ويبين مكانتها ، ويشرح أن المرأة تعامل كأنها نبات أو حيوان أليف يمتلكه الرجل لمتعته الخاصة ، ويبين أن هذا خطأ كبير ، شارحاً أن المرأة كالرجل فى المواهب والقيمة الإنسانية ، وأنها وإن اختلفت عنه فإنها تختلف فى الدرجة فيفوقها الرجل أحياناً وتفوقه أحياناً . ويتساءل ابن رشد : ألا تؤدي أنثى الكلاب دورها كالمذكر فى حراسة قطعان الماشية ؟ فكيف لا تستطيع المرأة أن تؤدي دورها بجانب الرجل فى خدمة الإنسانية ؟ .

من الفكر الإسلامى للفكر الغربى فى الفلسفة :

وقد اتخذت الأفكار الفلسفية وبخاصة أفكار ابن رشد طريقها إلى الأوربيين ، فنظرية ابن رشد عن الحقيقتين ، ورأيه فى أزلية الهوى كانتا المشعل الذى سار فى ضوءه العلماء الأوربيون ، وأفكار ابن رشد عن المرأة ظلت تسير فى أوربا رويداً رويداً حتى صرخ بها Dubais فى فرنسا و Oekham فى إنجلترا بعد ابن رشد بحوالى قرنين .

وقد سبق أن ذكرنا أن الفضل يرجع لليهود والمسيحيين في ترجمة علوم الهند والأغريق للمسلمين ، ونضيف هنا أن اليهود والمسيحيين قاموا مرة أخرى بحركة الترجمة من الفكر الإسلامى إلى اللغات الأوروبية ، ومن الواضح أن اليهود والمسيحيين استمتموا في ظل الحكم الإسلامى بالتسامح الدينى الذى لم تعرفه الأديان من قبل ، وقد فتحت لهم أبواب الكليات والجامعات ، وكانوا يجيدون اللغة العربية ويلبسون الزى الذى يلبسه المسلمون ، وقد أتيح لهم في أثناء هذه الدراسة — بجانب الفائدة الفكرية — أن يتعرفوا على أخلاق المسلمين وأن يتحلوا بها .

الثقافة الإسلامية في البلاط المسيحى بشمالى أسبانيا :

ولما خضعت أسبانيا لحكم الموحدين المغاربة بدأ نفوذ الفقهاء يظهر في سيرة بعض ملوكهم ، ومن عرف بعداؤه للفلسفة وتبعيته للفقهاء المتعصبين أبو يوسف يعقوب المنصور (١١٨٤ — ١١٩٩ م) وكان مما فعله أبو يوسف — ليرضى الفقهاء — أن نفي من الأندلس أكثر المشتغلين بالفلسفة وخاصة من المسيحيين واليهود ، كما أبعد ابن رشد عن بلاطه وعاصمته . فرحل الفلاسفة والعلماء اليهود والمسيحيون إلى الممالك المجاورة فدخلوا الجزء الشمالى المسيحى بأسبانيا ، كما دخلوا فرنسا ، وهنا وهناك نشروا الثقافة الإسلامية التى رحلوا بها ، ومن احتفى بهم حفاوة ظاهرة الملك الفونس السادس الذى كان قد التحق بنفسه بمعاهد المسلمين من قبل ، وارتوى من معينها ، وعشق ثقافتها ، وسار فردريك الثالث والفونس الحكيم سيرة الفونس السادس في تشجيع العلم والترجمة .

اليهود وآراء الفلاسفة المسلمين :

وحدثت بعد ذلك فاجعة دفعت الثقافة الإسلامية إلى أقطار أوروبية أخرى ، وذلك أن اليهود كانوا هم عماد الترجمة من العربية إلى العبرية

واللاتينية ، ولكن أوربا لم تكن تعرف التسامح الدينى ، فسرعان ما ظهر تعصب المسيحيين ضد اليهود ، وزاد فى ذلك التعصب ثراء اليهود الذى أثار ثائرة التجار ، ثم اتباع اليهود لمذهب ابن رشد وذلك ما لا يرضى الكنيسة المحافظة ، وكانت النتيجة أن قامت عدة مذابح ضد اليهود ، سقط فيها كثيرون منهم ، وفر آخرون من هذا العسف إلى مناطق أخرى بأوربا حيث واصلوا نشر الثقافة الإسلامية وبخاصة مبادئ ابن رشد فى بقاع مختلفة ، ومن الأسر اليهودية التى اشتهرت بترجمة الفكر الإسلامى أسرة Tidponides التى اتخذت Lunel مركزاً لنشاطها العلمى وأخذت على عاتقها ترجمة مؤلفات ابن رشد وشروحه إلى العبرية واللاتينية ، وليست مؤلفات بعض أفراد هذه الأسرة إلا تكراراً أو إبرازاً لآراء ابن رشد وتعاليمه ، وهذه الحقيقة تبرز فى كتاب The Openiom of Philosophers (أفكار الفلاسفة) الذى كتبه صمويل بن تبون وكتاب The Search fot Wisdom (البحث عن الحكمة) الذى كتبه جودا بن سليمان وكتاب Gate Haaven (باب السماء) الذى كتبه جيرسون بن سليمان .

ولم يكن اليهود تلاميذ ابن رشد فقط ، بل كان منهم من اتخذ ابن سينا رائداً له كموسى بن ميمون ومن سار على نهج الغزالى مثل Hel Mevi

الرحالة وفلسفة المسلمين :

وأسهم غير اليهود فى خدمة الفكر الإسلامى ونقله إلى الفكر الأوروبى وكان ممن حمل نصيباً فى ذلك الرحالة والتجار الذين أخذوا معهم صوراً من هذه الثقافة وبخاصة اتجاهات ابن رشد إلى فرنسا وإيطاليا وأواسط أوربا .

وسائل متعددة لنشر الفلسفة الإسلامية بالغرب :

وفى Toledo أنشأ البطريق ريموند (١١٣٠ - ١١٥٠ م) كلية للدراسات اللاهوتية ، وكان من أهم ما يدرس بهذه الكلية كتب الفلسفة

والعلم التي كتبها المسلمون ، وبخاصة شروح المسلمين على كتب أرسطو وخلاصة ما كتبه الفارابي وابن رشد ، وقد ترجمت هذه إلى اللاتينية .

ومما هو جدير بالذكر أن اللغة العربية بقيت لغة البلاط في Toledo مدة قرنين بعد أن استولى عليها الفونس السادس سنة ١٠٨٥ م ، وظلت العملة في هذه المملكة تحمل الحروف العربية فترة طويلة .

وحوالى نهاية القرن الثاني عشر كانت فلسفة ابن رشد هي الفلسفة السائدة بأوروبا ، وكان إقبال الناس عليها شديداً ، وكانت طابع الدراسة لكلية الآداب بباريس ، وقد أزعج هذا الإقبال السلطات الدينية ، فأصدرت قرارات متعددة بتحريم دراسة أفكار أرسطو وأفكار ابن رشد بالجامعات الأوروبية ، كما صدرت قرارات تضاد اتجاهات ابن رشد ، وقرارات أخرى ضد من حملوا لواء الرشدية (مذهب ابن رشد) ولكن كل هذه القرارات لم تُجند ، ولم تستطع أية قوة أن تقف في وجهها فالتحذت طريقها إلى الذيوع والانتشار .

وفي سنة ١٢١٥ م أصبح فردريك الثاني إمبراطوراً لروما ، وقد سبق أن التحق هذا الإمبراطور بجامعة بالرمو وتلقى علومه على يد المعلمين العرب ، كما اتصل اتصالاً وثيقاً بالمسلمين في صقلية وفي سوريا (خلال الحروب الصليبية) وكان من نتيجة ذلك أن أصبح من المعجبين بثقافة المسلمين وبخاصة بأفكار ابن رشد ، وفي سنة ١٢٢٤ م شيد هذا الإمبراطور جامعة في نابلي ، وكان الهدف الأساسي له أن ينشر بين الأوروبيين فلسفة المسلمين وعلومهم بواسطة هذه الجامعة ، وفي هذه الجامعة تلقى القديس توماس علومه ، وقد (م - ١١ الفكر الإسلامى)

استخدمت هذه الجامعة كثيرين من الباحثين اليهود والمسيحيين للترجمة من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية ، وكانت مؤلفات أرسطو التي تحمل شروح ابن رشد ومؤلفات ابن رشد نفسه من أهم ما حفل به منهاج هذه الجامعة ، كما قامت هذه الجامعة بإرسال ترجمات هذه المؤلفات إلى جامعتي باريس وبولونيا .

ويقول الدكتور فيليب حتى في إظهار تأثير الفلسفة الإسلامية بوجه عام وفلسفة ابن رشد بوجه خاص على الفكر الأوربي : « ومع أن الغرب اعتمد في أكثر الأحيان على ترجمة لاتينية منقولة عن العبرانية ، وكانت هذه بدورها منقولة عن شرح عربي على ترجمة عربية منقولة عن السريانية وهذه عن اليونانية ، فإن عقول فلاسفة النصارى قد تأثرت بأرسطو وابن رشد أكثر مما تأثرت بأى مؤلف آخر . وظلت فلسفة ابن رشد مهيمنة على عالم الفكر من أواخر القرن الثانى عشر حتى آخر القرن السادس عشر ، وذلك برغم المعارضة التي واجهها أولاً من أهل السنة في أسبانيا ، وثانياً من أهل التلمود ، وثالثاً من الأكليروس المسيحي ، وليس من شك في أن ابن رشد كان من دعاة تحكيم العقل في جميع الأمور إلا عقائد الإيمان المنزلة ، ولم يكن — كما ادعى كثيرون — أباً لحرية الفكر والإلحاد وعدوا للدين والإيمان .

وقد عمد رجال الكهنوت إلى كتاباته فنفوا منها بعض المواد غير المرغوب فيها من وجهة نظرهم ، ثم جعلوها كتباً للتدريس في الجامعات والمعاهد العالية بأوروبا .

وما إن جاء القرن السادس عشر حتى صارت فلسفة ابن رشد كما يقول Renan الفلسفة الرسمية التي تدين بها الطبقات المتعلمة بإيطاليا، ومن الواضح — على هذا — أن أفكار ابن رشد ظلت صاحبة النفوذ على الفكر الأوربي طيلة أربعة قرون ووضعت الأساس للنهضة الأوربية ، ويرى Coulton أن نفوذ نظريات ابن رشد يشبه نفوذ نظرية دارون في العهد الحاضر ، ولكن عناصر المقارنة الصحيحة تستلزم أن تعيش نظرية دارون تلك القرون التي عاشتها أفكار ابن رشد .

تأثير الجامعات الإسلامية على جامعات أوربا : (٥)

ذكرنا فيما سبق تأثير النواحي العلمية والفلسفية في العالم الإسلامي على التفكير الأوربي ، ونريد هنا أن نذكر أن أوربا عندما أنشأت الجامعات استفادت استفادة كبيرة بالجامعات الإسلامية التي كانت قد سبقتها بعدة قرون ، فقد أنشئ الأزهر في القرن العاشر الميلادي وأنشئت المدارس النظامية في القرن الحادي عشر ، ثم ابتدأت أوربا في إنشاء الجامعات في القرن الثالث عشر أي بعد عصر النهضة الذي استفاد من علوم الشرق ونهضته .

وعندما أنشئت الجامعات الغربية اقتبست الكثير من النظم الإسلامية التي كانت متبعة في جامعات الشرق ، كالزى الجامعي ، ونقابة المعلمين ، وحلقات التعليم ، والأروقة أو النظم الداخلية للطلاب ، والأوقاف على التعليم ، ونظام المعيدن ، ويقول الفريد جيوم : « إن طبيعة الدراسة المنظمة ، والعلاقة بين الأستاذ وتلميذه ، والهبات المالية التي عاشت عليها الجامعات ، وشتى نواحي

(٥) هذا الموضوع من إضافات المترجم .

النشاط في الحياة الجامعية ، كانت بدون شك متشابهة في الشرق والغرب» (١).

واستمرارا مع ذلك يرى بروفيسور جيوم أن كلمة « بكالوريا أو أو « بكالوريوس » التي كانت شهادة ضرورية لمن يشغل وظيفة معيد ، ليست إلا تحريفا للكلمة العربية « حق الرواية » الذي كان يساعد الأستاذ يستغله بناء على تقرير أستاذه (٢) .

ومما يؤكد الصلة بين الجامعات الغربية والجامعات الإسلامية أن الجامعات الغربية نشأت في أحضان الكنيسة ، فكل الجامعات في البلاد الغربية نشأت في مدارس أسقفية ، وحصلت على قوانين قيامها من الهيئات البابوية ، وهذا يتضح تماما بالنسبة لجامعة كمبردج بإنجلترا التي ترتفع المشاهد الكنسية في جامعاتها والتي تسمى بعض كلياتها بأسماء دينية مثل « Trinity College »

وليس هذا إلا لأن الأزهر وهو أول جامعة إسلامية كبرى نشأ في أحضان الدين ومرتبطة بمسجد هو مسجد الأزهر الذي أنشأه جوهر الصقلي ثم جعله المعز لدين الله جامعة لكل جوانب العلوم .

التقدم في مجال الحياة العملية (*)

بالإضافة إلى نشاط المسلمين في الميادين العلمية والفلسفية كان للمسلمين نشاط كبير في الميادين العملية، وقد أشار مؤلف هذا الكتاب لإشارات سريعة إلى هذا النشاط في التقديم للباب الأول ، وقد رأيت أن أشرح هذا النشاط بما يجعله واضحاً للقارئ .

الزراعة :

اتسعت الدولة الإسلامية إتساعاً كبيراً في وقت قصير ، وإذا كانت أكثر الجزيرة العربية — كما قال القرآن الكريم — أرضاً غير ذات زرع ، ولا تجري بها أنهار ، فإن المناطق الواسعة التي دخلها الإسلام ابتداء من العقد الثاني للهجرة كانت مناطق خصبة للغاية تتدفق فيها الأنهار الواسعة كنهر دجلة والفرات والنيل ، وأنهار إيران وأنهار الأندلس ، ومن هنا فقد اتجه المسلمون إلى رعاية الزراعة التي كانت تمثل أهم جانب من جوانب الاقتصاد في الدولة ، ومما يروى عن هارون الرشيد أنه استلقى مرة على ظهره ، فرأى سحابة تمر في السماء فنادى قائلاً : اذهبى حيث شئت فسيأتينى خراجك . وهذا يدلنا على اهتمام الدولة بالحصولات الزراعية التي تكون جزءاً مهماً من ميزانية الدولة .

ومن المعروف أن المسلمين تركوا الأرض لزارعها في الأقطار التي فتحوها بناء على اجتهاد عمر بن الخطاب الذي ارتضاه المسلمون (١) .

(*) هذه الموضوعات من إضافات المترجم .

(١) انظر كتابها الاقتصاد في الفكر الإسلامي .

أما الأراضي التي هاجر أصحابها أو قتلوا ، فقد أصبحت ملكاً للدولة يزرعها الزارعون ويؤدون عنها الخراج .

لهذا ولاهتمام الإسلام بالعدالة اتجهت الدولة الإسلامية للاهتمام الواسع لرعاية الأنهار والآبار كما اتجهت لحفظ الأمن حتى يزرع الزارع وهم آمنون على أنفسهم وثرواتهم ، وقد أثر عن علي بن أبي طالب نصحه للولاة بأن يهتموا بتيسير أمر الزارع والعدالة معهم ، فإن ذلك هو الطريق السليم للحصول على الخراج دون عناء .

لكل هذا كانت العناية بالأنهار عناية شاملة ، كما اتجه المسلمون لحفر القنوات التي تجلب الماء من الأنهار إلى الأماكن النائية ، واهتموا كذلك بعمل السدود .

ومع تقدم الطب اتجهت الدولة والزراع إلى العناية بالنباتات الطبية التي كان يستخرج منها العقاقير ، والتي كانت أثمانها مرتفعة .

ومثل هذا يقال بالنسبة للزهور والرياح التي اتجه لها الزارع عندما كثرت العناية بالقصور لتزيينها أرجاء تلك القصور .

وهكذا كانت العناية بالحبوب والبساتين وأشجار الفاكهة ونباتات العقاقير ، وحدائق الأزهار كلها موضع اهتمام بالغ جعل المسلمين يهتمون اهتماماً كبيراً بالزراعة ، وفي كثير من الحالات أصبحت الدورة الزراعية ثلاثية ، كما اهتم المسلمون بوسائل تسميد الأرض وزيادة خصوبتها حتى تنتج أكبر قدر ممكن من هذه الحاصلات .

وعرف المسلمون أنواع التربة في المناطق المختلفة بحيث درسوا

ما يلائم كل تربة من أنواع الحاصلات وكان اهتمامهم شديداً بالنباتات التي لا تحتاج إلى كثير من المياه . فوجهوها إلى الأرض التي لا تتدفق فيها الأنهار أو التي تعتمد على هطول الأمطار .

ويذكر الدكتور أحمد عيسى في كتابه « تاريخ النبات عند العرب » أن العرب قاموا بتطوير الزراعة وتحسين النباتات وعملوا على تعدد المحاصيل في العام الواحد ، ودرسوا مختلف الحشائش والشجيرات والأشجار والبذور والثمار وقاربوا بينها ، وعرفوا طرق إكثارها ، كما عرفوا نباتات الزينة ، واهتموا بالنباتات الطبية . وينقل عن الدكتور « ماير هوف » قوله : إن كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية الذي وضعه ابن البيطار يعد أعظم كتاب ظهر في علم النبات في حينه ، وقد ترجم إلى اللاتينية والفرنسية والألمانية وغيرها من اللغات العالمية ، واعتمد عليه العلماء الأوربيون وأخذوا منه شيئاً كثيراً .

التجارة :

كان للمسلمين عناية كبرى بالتجارة الداخلية والخارجية ويتجه أكثر المفكرين إلى أن البحر الأبيض كان واسطة التقاء تجارى بين المسلمين وأوروبا أكثر من كونه حاجزاً بين الجهتين وكانت الموانئ الإسلامية في سوريا ومصر والشمال الإفريقي على صلة بالموانئ بجنوب إيطاليا وفرنسا وبخاصة جنوة والبندقية وبروفانس ، كما كانت هناك تجارة مع شمال أوروبا وصلت إلى فنلندا والسويد والنرويج ، وقد عثر على نقود عربية يرجع تاريخها إلى العصر العباسي في الدول المذكورة .

وكان هناك نشاط تجارى بين العالم الإسلامى وبين الشرق الأقصى ، وكان هذا النشاط يتخذ طريق البر في شمال سوريا والعراق وإيران إلى الهند والصين أو يتخذ طريق البحر بواسطة البحر الأحمر والخليج العربى إلى الهند فالصين ، وكانت الأخشاب والفيلة والتوابل أهم ما يستورد ، كما كان النسيج والحبوب من أهم ما يصدر لهذه البلاد .

وكانت هناك تجارة واسعة بين العالم الإسلامى وبين قلب إفريقيا وكان الذهب والأبنوس والعاج تستورد من هذه المناطق عن طريق زيلع وعدن في مقابل النسيج والملابس وبعض الصناعات الدقيقة التى كانت تصدر لهذه المناطق .

وبالإضافة إلى التجارة الخارجية كانت هناك تجارة داخلية بين الأقطار المختلفة التى شملتها الأمة الإسلامية ومن الواضح أن الإنتاج كان يختلف من منطقة إلى أخرى وكان التبادل التجارى يسد حاجة المحتاج عن طريق سوق تجارية نشطة بين قطر وقطر في العالم الإسلامى ، وكان من دواعى هذا النجاح التجارى، تلك الطرق الممهدة والمسالك المنتظمة التى كانت تمثل شبكة واسعة تربط جوانب الأمة الإسلامية ، وعلى طول هذه المسالك كانت توجد الآبار والمخازن ومنازل الاستراحة والحراسة التى كانت تهيء لنشاط متصل :

وكان المسلمون يملكون أسطولا تجارياً تجرى سفنه لتربط العالم الإسلامى بالأقطار غير الإسلامية في الشمال والجنوب والشرق ، أو تربط منطقة إسلامية بأخرى في العالم الإسلامى الفسيح .

الفنون والصناعات :

كانت هناك صناعات كثيرة في البلاد الإسلامية قبل أن يدخلها الإسلام وقد ورد في تقديم هذا الكتاب نماذج لهذه الصناعات التي كانت تنسب إلى البلاد التي كانت تقوم بها .

ثم ظهرت فنون وصناعات منذ مطلع الإسلام ، وكانت غالبا مرتبطة بمظاهر إسلامية ، ومن المعروف أن المسلمين بكروا ببناء المساجد ، وقد اشترك الرسول صلوات الله عليه بنفسه في بناء مسجد المدينة ، وكان المسجد في أول الإسلام بسيطاً يتجه فقط لأداء مهمته في العبادة والاجتماعات والقضاء والتعليم ، وانتشرت المساجد بعد ذلك في المدينة المنورة ، وفي النواحي التي دخلها الإسلام بالجزيرة العربية في حياة الرسول .

وبدأ الإسلام ينتشر خارج الجزيرة العربية عقب وفاة الرسول ، وأسست المدن الإسلامية في البصرة والكوفة والفسطاط وبغداد وغيرها ، وكان المسجد دائماً يعتبر مركزاً للمدينة الإسلامية ، ولم يعد المسجد في هذه البلاد بسيطاً كما كانت المساجد من قبل ، وإنما تأثرت المساجد بالحركات العمرانية الواسعة والضخمة التي عرفتها هذه البلاد ، ويكفي أن نشير إلى أن المسجد الأموي بدمشق كان يعتبر إحدى عجائب الدنيا .

وفي هذه المساجد ظهرت صور من العمارة والزخارف والفنون الرائعة كالأعمدة والعقود والزخارف الهندسية واتخذت آيات القرآن الكريم وسيلة تحمل - بجانب معناها - روعة في أداؤها وكتابتها .

وكما كان المسجد مركزاً من مراكز الفنون في الإسلام فقد اتجه المسلمون

كذلك إلى المصحف الشريف ليتخذوا منه وسيلة لإبراز الفنون الإسلامية كذلك ، فقد أبدع المسلمون في كتابة المصحف الشريف ، واتخذوا في ذلك خطوطاً مختلفة وألواناً متعددة ، كما أحاطوا صفحات المصحف بإطار من الفن الجميل ، وتفننوا كذلك في غلاف المصحف وفي الصندوق الذي يوضع فيه المصحف ، فأصبحت هذه كلها نماذج راقية من الفنون الجميلة .

والخط العربي كذلك أصبح وسيلة من الوسائل الفنية ، ومع أن العرب لم يعرفوا الكتابة كثيراً إلا بعد ظهور الإسلام ، فإنهم مع الإسلام ومع تقدم العالم الإسلامي بذلوا جهداً كبيراً في تحسين الخط العربي وتلوينه ، فأصبح منه خط النسخ وخط الرقعة والثلث والفارسي والديواني وغيرها من الخطوط التي أصبحت نماذج رائعة في الفن والزخرفة .

وابتداء من العهد الأموي بدأت قصور الخلفاء والأمراء تحاكي قصور السابقين ، وكانت قصور العباسيين قمة في الروعة والأناقة ، وفي هذه القصور هنا وهناك ظهرت صور من الفنون والزخارف والعقود ، والتذهيب والتدويق .

والتحق بالقصور ، القلاع والخانقاه والروابط ثم المدارس والبيمارستانات ، فكانت كلها نماذج ممتازة من العمارة الإسلامية حفلت بالمآذن والقباب والعقود والمحاريب .

الصناعات الجلدية وصناعات النسيج :

وقد ارتبط بالمصحف الشريف تطور الصناعات الجلدية وذلك بإعداد جلود للمصاحف ، وصناديق لها من الجلد الذي كان يعد إعداداً زخرفياً رائعاً .

وارتبطت بالقصور صناعة النسيج والطرز ، وقد عرف العالم الإسلامى فى عصور رُقيته صورا من الأزياء كان كل منها يناسب طائفة معينة من طوائف الشعب ، فكان هناك زى للخلفاء وآخر للأهراء وثالث للعلماء وهكذا.

وفى العصر الفاطمى كان هناك بيت للطراز يصنع الملابس المختلفة الموشاة بالحيوط المتعددة الألوان وكان الخلفاء الفاطميون يقدمون هذه الملابس هدايا لأصحاب الوظائف الذين يعينهم الخلفاء فيها .

وكانت مصر تعتبر بوجه عام مركزاً مهماً من مراكز صناعة النسيج ، وكانت دمياط والإسكندرية والفيوم والمنية مراكز مختلفة لصناعة النسيج . من القطن والكتان والحرير ، وترجع شهرة مصر فى هذا المجال إلى العصور الإسلامية الأولى ، ويذكر التاريخ أن الولاة المصريين كانوا يرسلون إلى الخلافة العباسية كثيراً من المنسوجات النفيسة ضمن الأموال المقررة أو الهدايا التى كانوا يبعثون بها إلى الخلفاء ، وفى متحف برلين قطعة من النسيج المصرى باسم الخليفة المعتمد على الله مؤرخة سنة ٢٧٨ هـ ، وقطعة أخرى باسم الخليفة المكتفى والأمير هارون بن خاروبة مؤرخة سنة ٢٩١ هـ ، كما وصلتنا مجموعة من قطع النسيج من الصوف والكتان صنعت فى إقليم الفيوم وتنسب إلى القرن الرابع الهجرى، ويُزخرف كثير من هذه القطع برسوم تتألف عادة من أشرطة تشتمل على زخارف وصور حيوانات وطيور وآدميين بالإضافة إلى أشرطة من الكتابة العربية الزخرفية، وفى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة نماذج من هذا اللون .

وهناك نماذج مماثلة مما صنع فى العراق والأندلس وإيران (١) .

وكل هذه الأنشطة العملية وجدت طريقها إلى أوروبا ، فاتجهت جهود الأوربيين إلى محاكاتها لرفع شأن الشعوب التى كانت قبل الإسلام غارقة فى الحروب والصراع .

(١) دكتور حسن الباشا : دراسات فى الحضارة الإسلامية ١٧٤ - ١٧٥

خاتمة

رأينا فيما سبق أن الفكر الإسلامي حقق تقدماً رائعاً خلال الفترة الواقعة بين القرن الثامن والقرن الثالث عشر ، ورأينا كيف تلقى الفكر الإسلامي ما دونه الباحثون السابقون من دراسات وكيف طورها المسلمون وزادوا عليها ، كما رأينا ما ابتكره المسلمون من أبحاث علمية وفلسفية ، وأوجزنا القول فيما حققوه من تقدم في مجال الحياة العلمية ، وأخيراً شاهدنا هذه النتائج يقدمها المسلمون زاداً ناضجاً لأوروبا ، فكان هذا الزاد أساساً شيدت عليه النهضة الأوروبية .

ضعف الفكر الإسلامي وأسبابه :

ولكن الفكر الإسلامي انحدر بعد القرن الثالث عشر ، فكان في خلال الفترة من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر ضعيفاً هزيباً ، وذلك للأسباب التالية :

أولاً : المبالغة التي أدخلها الغزالي في الشرق الإسلامي ، وابن رشد في الغرب الإسلامي على الفلسفة الإسلامية ، فأما الأول فقد اتجه بالفلسفة الإسلامية إلى الجانب الروحاني حتى انماحت في سحب التصوف ، وأما الثاني فأتجه اتجاهًا مضاداً لاتجاه الغزالي فاتجه بها إلى هوة المادة ، ونجح الغزالي في الشرق فأصبحت آراؤه تمثل أهم مدرسة به ، ونجح ابن رشد في الغرب حتى صارت أفكاره أهم رائد للفكر الغربي ، وعلى هذا اتسعت الهوة بين الشرق والغرب وأهمل كل منهما اتجاه الجانب الآخر مما عاد بالخسارة على الجانبين . والحقيقة أن الجانب الروحاني لا يستطيع أن يتناسى العقل والمنطق ، وأن الجانب المادي لا يمكن أن يهمل الاتجاهات الروحانية في هذه المباحث فكلا الاتجاهين يكمل الآخر ، وإهمال أحدهما يعود بالخسارة على التفكير الفلسفي ، ولا مناص من العناية بالجانبين إن أريد للفكر الإسلامي أن ينتعش مرة أخرى .

ثانياً : أهمل خلفاء المسلمين وأمراؤهم في هذه الفترة رعاية العلم والثقافة ، ومن الواضح أن العلم إن عُدَّ ترفاً بالنسبة للفرد فهو ضروري بالنسبة للدولة ، وقد كان الخلفاء والأمراء الأول يدركون هذه الحقيقة فشجعوا العلم وراعوا أهله حتى رأينا كبار المفكرين يعيشون في كنف الخلفاء والسلاطين في بحبوحة من العيش ومستوى رفيع من النفوذ ، فالرازي تخلص في نعيم الأمراء والقصور وبخاصة في قصور السامانيين ، ونعيم ابن سينا برعاية علاء الدولة بأصبهان ، وكان ابن مسكويه صديقاً للسلطان عضد الدولة وخازناً لأمواله ، وكان ابن طفيل وزيراً لأبي يعقوب يوسف ، وابن باجة وزيراً للسلطان على حاكم سرقوسة ، وكان ابن رشد طبيباً لبلاط أبي يعقوب يوسف ، وابن خلدون كان واسع الجاه وسفيراً لدى كثيرين من أمراء عصره ، ثم جاءت جهود الضعف والانحلال ، فلم يعد العلماء ينعمون برعاية أو تشجيع مما سبب ضعف الثقافة وانحلالها .

ثالثاً : مُنِيَ العالم الإسلامي بكثير من الثورات السياسية الداخلية وألوان من الهجوم من الخارج ، وخلال هذه وتلك جرت مذابح للسكان ، ودمرت مدن ، وأحرقت مكاتب ، وأقفلت كليات وجامعات ، وبعض هذه الحركات انتهت باستعباد السكان وبالتالي باستعباد العقول ، فحرية الفكر لا تعيش في أجواء العبودية ، ولا ينشط العقل ما دام الجسم مكبلاً مغلوباً على أمره . وفي هذه الغيوم والسحب انحدر الصوفية إلى حياة الدراويش ، وانحدر الشعب إلى عبادة الأولياء وتقديس الأضرحة . وانحل العالم الإسلامي إلى دويلات وانحلت الدويلات إلى قبائل وبطون وطبقات ، وانتقل مشعل التفكير من المسلمين إلى المسيحيين الذين ساروا في طريقهم ينتفعون بما نالوه من ثمار الفكر الإسلامي ، ولما انتقل النشاط العلمي والفلسفي إلى أوروبا تبعه النشاط الصناعي والتجاري ، وبالتالي انتقل الرخاء من الشرق إلى الغرب .

على أن الفكر الإسلامى لم يمت فى الشرق ، بل ظل ضعيفاً مستوراً يتحين
الفرص للنشاط والظهور ، وقد أتيحت له صحوات من حين إلى آخر على يد
بعض المفكرين المسلمين أمثال الكاتبي والحلى والأصفهاني وصدر الدين
الشيرازى وعبد الكريم جيلى والجرجاني والتفتازانى وجلال الدين الدوانى
وملة سابزواري وطاش كبرى زاده وحسن بهارى وشاه ولى الله وفصل
الحق الخير بادى وغيرهم ، على أن عبد الكريم يعد فى القمة بين هؤلاء ،
فهو وحده الذى وصل إلى مستوى المفكرين المسلمين فى عصور النهضة
الإسلامية .

عصور الظلام :

ذلك حال الضعف الذى أصاب العالم الإسلامى فى المدة من القرن الثالث
عشر إلى السادس عشر ، أما القرون الثلاثة التالية أى القرن السابع عشر
والثامن عشر والتاسع عشر فتعدُّ عصر ظلام بالنسبة للعالم الإسلامى فقد امتد
الاحتلال الأوروبى والتركى ، وكان التدهور الثقافى على نفس مستوى
التدهور السياسى .

مطالع النهضة الإسلامية :

وقبيل نهاية القرن التاسع عشر بدأت نهضة فكرية قادها المصلح جمال الدين
الأفغانى الذى اتخذ من مصر مركزاً لنشاطه وأسس مدرسة فكرية لم يتوقف
نشاطها حتى الآن ، وفى الهند قام السيد أحمد خان بحركة مماثلة ، وقد فتحت
هذه الحركات الباب للنهضة الإسلامية التى سارت بقوة وفى ميادين مختلفة
ثقافية واجتماعية وسياسية ، وامتدت إلى أكثر بلدان العالم الإسلامى أو
جميعها ، وظهر فى هذه الأثناء الشاعر الهندى الفيلسوف محمد إقبال ،
وإقبال عنى بالدراسات الإسلامية وبالفلسفة ، ونادى كذلك بنهضة عقلية
(١٢م — الفكر الإسلامى)

شاملة ، وأبان أن الدين والفلسفة والعلم دعائم ضرورية لبناء النهضة الإنسانية ، وأسس هامة لتحقيق السعادة للإنسان، ولا تصل أمة إلى الرقي المنشود بدون العناية بهذه الدراسات جميعا .

آمال في المستقبل :

والأمل معقود على النهضة الحديثة التي تشع في ربوع العالم الإسلامي ، ونرجو أن يلحق المسلمون بركب الثقافة الذي فاتهم ، بل أن يستعيدوا القيادة التي كانت في أيديهم حيننا طويلا من الزمن . والتي شملت نواحي الحياة المختلفة من ثقافة إلى فلسفة ودين ونظم اجتماعية وأخلاقية .

وإذا كان المسلمون قد تأخروا في الأخذ بأسباب هذه النهضة ، فإن التفاؤل يجعلنا نرى أنهم لم يبدؤوا نهضتهم الحديثة بعد فوات الأوان ، وأن فرص العمل لا تزال وسيلة النجاح للأقوياء منهم والمجاهدين الأكفء .

ISLAMIC
INSTITUTIONS AND CIVILIZATION

2

MUSLIM THOUGHT

its Origin and Achievements

BY

M. M. SHARIF

BY

AHMAD SHALABY,

B. A. (Hon.) Cairo University,

Ph. D. Cambridge University,

Professor

of Islamic History and Civilization

Faculty of Dar El Ulum, Cairo University

Eighth Edition (1986)

Published by :

THE RENAISSANCE BOOKSHOP

9 Adly Street, Cairo.



دكتور أحمد شلبى

— تلقى دراساته فى الأزهر وفى كلية دار العلوم
(جامعة القاهرة) وفى جامعة لندن وجامعة
كمبريدج .

— زار الولايات المتحدة الأمريكية كما زار أكثر
دول أوروبا وآسيا وأفريقيا ، ومثل مصر فى
عدة مؤتمرات دولية .

— درس مجموعة من اللغات الأجنبية ويجيد
الإنجليزية والاندونيسية .

— اشغل بالتدريس بجامعة القاهرة حتى وصل
الى درجة أستاذ ورئيس قسم التاريخ
الإسلامى والحضارة الإسلامية — وقد
حاضر — مندوبا وزائرا ومعارا — فى جامعة
الأزهر ، وعين شمس ، واندونيسيا ،
والسودان ، وماليزيا ، والمملكة العربية
السعودية ، وليبيا ، وفى معهد الدراسات
الإسلامية ، ومعهد البحوث والدراسات
العربية ، ومعهد الدراسات اديولوجية .
— مؤلفاته — غير المكتبة الإسلامية — نزيد عن
خمسين كتابا ظهرت الطبعة السابعة عشره
من بعضها ، وأهم هذه المؤلفات :

١ — موسوعة التاريخ الإسلامى فى عشرة أجزاء .

٢ — موسوعة الحضارة الإسلامية فى عشرة أجزاء .

٣ — مقارنة الأديان فى أربعة أجزاء .

٤ — كيف نكتب بحثا أو رسالة .

٥ — المكتبة الإسلامية لكل الأعمار :

١٠٠ جزء من السير والتاريخ وقصص القرآن ،
للأولاد والشبان والسيدات والرجال .

ISLAM : Belief Legislation Morals — ٦

History of Muslim Education — ٧

— كتب بعض كتبه بالإنجليزية والاندونيسية ،
وترجمت أكثر مؤلفاته الى الأوردية والتركية ،
والاندونيسية والماليزية والفرنسية والفارسية .